الفصـــــل الثـــالث

العلاقات السياسية بين الخلافة الموحدية الحفصية والمشرق الاســـلامى

١ ـــ نشأة الخلافة الحفصية •

٢ ـــ تطور العلاقات الخارجية للحفصية مع المشرق الاسلامى •

٣ ـــ تطور العلاقات بين العناصر العربية والتركية المملوكية وبيـــن الحفصيين •

٤ ـــ دور الجند المغاربة فى العلاقات المشرقية •

العلاقات السياسية بين الخلافة الموحدية الحفصية والمشرق الاسلامى

بموت يعقوب المنصور الموحدى سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ينتهى عهد الازدهار فى خلافة الموحدين ، وتبدأ مرحلة جديدة من عهود خلفائه [١] هى مرحلة الانهيار فى تاريخ هذه الدولة الى أن تجددت ممثلة فى الدولة الحفصية التونسية نذ عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م •

والواقع ان افريقية (تونس) كانت تتميز خلال القرنين ٧ ، ٨ من تاريخها الاسلامى على المغرب الاقصى بموقعها الادنى الى الشرق الاسلامى وقرب اتصالها باحداث الحركة الصليبية فى المشرق الاسلامى وأرتباطها الوثيق بالخلافة العباسية • كما تميزت بموقعها الاقرب أيضا من حركة التجارة البحرية فى البحر المتوسط وقنواتها البرية المشرقية الموصلة اليها • غير أن افريقية من ناحية أخرى كانت تفتقر الى الامكانيات الذاتية البشرية والاقتصادية التى سبق للخلافة الموحدية أن أقامت عليها صرح دولتها المغربية ونهضت بها من مرحلة السقوط المرابطى الى مرحلة الازدهار الموحدى • ومن ثم فان العنصر البشرى الخارجى وأن كان قد شكل رصيدا هاما فى التنظيم العسكرى الموحدى أيام خلافتها المراكشية ، فأن هذا العنصر — عربيا وتركيا وأوربيا — سيشكل جوهر هذاالتنظيم وسيصبح له دور فعال ومؤثر على مسيرة أحداث الدولة آنذاك ويطبع سياستها الخارجية بطابعه ، ومع الافتقار أيضا الى الامكانات الاقتصادية الذاتية ، فان الحركة التجارية البحرية ستطبع العلاقات التونسية الخارجية ببصمات واضحة أثرت الى حد كبير على دورها بين المشرق والمغرب الاسلاميين •

---

(١) انظر شجرة الدولة ، ملحق رقم (٦) .

نشـــأة الخلافـــة الحفصيـــــــة

أ ــ أولوية الدولة الحفصية بالخلافة :

يقول ابن الشماع عن تونس الحفصية « هى اليوم قاعدة البـــلاد الافريقية وأم بلادها وحضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين ومهاجـــر أهل الاقطار من الاندلس والمغرب وغيرهما • فكثر خلقها واتسع بشرها ورغب الناس فى سكناها وأحدثوا بها المبانى والكروم » [٢] •

ترجع بداية نشأة الخلافة الحفصية فى افريقية الى تاريخ تنصيب ابى محمد عبد الواحد بن أبى حفص واليا عليها سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م • ففى هذا العام ، عاد ابن غانية يواصل من جديد عبثه بافريقية وطرابلس وكان قد جرى بينه وبين الخليفة العباسى (الناصر لدين الله) اتصالات وصلته بموجبها خلع عباسية سوداء ، ومما يذكر فى ذلك أن الخليفـــة العباسى أرسل الى ابن غانية الشاعر الفقيه أبى الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الاسكندرانى رسولا من قبله يحمل اليه التقليد والخلع واللواء • وقد وصل هذا الرسول العباسى بالفعل الى افريقية وأدى رسالته ثم عاد الى بغداد وهو يحمل مبلغا من المال قدره عشرة آلاف دينار وزعهـــا على معارفه فى بغداد [٣] • ولما بلغ الخليفة الموحدى الناصر بن المنصـــور معاودة ابن غانية العبث وبث الاضطراب جهز حملة الى افريقية فى العام المذكور للنظر فى أمورها ورافقه فى حملته أبو محمد عبد الواحد بن أبـــى حفص • وبعد ان استقصى الناصر الاوضاع والامور فى افريقية وسمـــع من أهل تونس شكاياتهم المريرة وما كانوا يقاسونه من عبث الثـــوار فى

---

(٢) ابن أبى دينار ، المؤنس ، تحقيق شمام ، ص ٧

(٣) د . بدرى محمد فهد ، تاريخ العراق فى العصر العباسى الاخيـــر ، بغداد ، ١٩٧٣ ص ١٤

طرابلس وما كان يرتكبه ابن غانية من تعذيب أهلها ، وأمتهان البيـــوت ، وسلب الاموال ، رأى الناصر ضرورة اسناد هذه الولاية الى رجل قـــوى خبير بشئونها يقوم فى افريقية مقام الخليفة وتفوض اليه السلطـــات اللازمة لوضع الامور فى نصابها ووضع حد للفتن والاضطرابات وبـــذلك يضمن الناصر استمرار ربط افريقية بدار خلافته مراكش • ووقع اختيار الخليفة الموحدى على أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص لما كان يتميـــز به من حكمة وعزيمة ومضاء فى كل الامور فخاطبه بقوله : « هذه البـــلاد (افريقية) من أول هذا الامر العزيز ، ونحن مع هؤلاء الثوار فى أمـــر عظيم ، وتحت ليل بهيم ، وقد وصل اليها سيدنا عبـــد المؤمن وسيدنا أبو يعقوب وسيدنا المنصور ، وما منهم الا أنفق عليها أموالا ، وأفنى فى الحركة اليها رجالا ، والمشقة شديدة ، والشقة بعيدة ، وما عاد واحد منهم الـــى حضرته الا وعاد لها الويل • وهذه الدعوة كما يجب علينا القيام بها والذب عنها ، كذلك يجب عليك ، وقد طلبنا من جميع أخوانك وأعيان هذا الجمـــع من ينوب عنا فى هذه البلاد ، فلم نجد عنك معدلا ، فانحصر الامر فينـــا وفيك ، فاما أن تطلع الى حضرة مراكش فتقوم هنالك مقامنا ، ونقيم نحن بهذه البلاد أو نطلع نحن الى حضرتنا » (٤) •

وينتسب بنو حفص الى الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتـــى جد السلاطين الحفصيين بتونس وكان يتمتع بمكانة كبيرة فى الدولـــة المهدية منذ بدء قيامها فى عهد المهدى بن تومرت ثم فى عهد خلفائها الاوائل

---

(٤) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٢٢٥ . الحلل السندسية ، الوزيـــر السراج ، ج ١ ص ١٠٢٠—١٠٢١ . الزركشى ، تاريخ الدولتين ، تحقيـــق ماضور ، ص ١٨ . محمد عبد الهادى العامرى ، تاريخ المغرب فى سبعة قرون بين الاردهار والذبول ، تونس ، ١٩٧٤ ص ١

حتى الناصر بن يعقوب المنصور • فهو كبير قبيلة هنتاتة البربرية وأحد العشرة الاوائل السابقين الى الاستجابة لدعوة ابن تومرت • أبلى البلاء الحسن فى تثبيت دعوتهم ، وفى حروبهم بالمغرب والاندلس ، وتوفى سنة ٥٧١ هـ / ١١٨١ م • وقد شغل هو وأبناؤه مكانة سامية عند خلفاء الموحدين وكانوا موضع ثقتهم لما قدمه هو وأبناؤه فى سبيل نشر الدعوة الموحدية ولذلك حظى بنو حفص بمنزلة رفيعة من حيث القيادة العسكرية (٥) •

وقد تمنع الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص بادىء ذى بدء عن قبول ولاية افريقية ولكنه أعلن قبولها فيما بعد على أسس وشروط قبلها الخليفة الناصر منها :

١ — أن يقيم فى افريقية فترة حددها بثلاث سنوات ، وبعودة النظام والهدوء الى البلاد ، وعلى الخليفة الناصر أن ينصب مكانه من يخلفه ويرجع هو الى وطنه مراكش •

٢ — اطلاق حرية التصرف له فى الجيش والوظائف الادارية ، فمن شاء أبقاه ومن شاء أعفاه •

وقد قبل الناصر كل شروطه وتأهب للعودة الى مراكش ، حيث ودعه الشيخ أبو محمد عبد الواحد حتى بجاية • وقبل أن يغادر الناصر افريقية

---

(٥) ولد الشيخ ابو حفص فيما يقرب من ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) وكان اسمه بالبربرية « فسكات او مزال » وعندما اتصل بالمهدى فى سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠م) وعد من اخلص اصحابه فسماه ابن تومرت عمر وكناه ابا حفص تيمنا بعمر بن الخطاب وصحابته للرسول ؛ ولهذا عرف فى بعض المصادر بأبى حفص عمر بن الخطاب ؛ وكان المهدى يقول لاصحابه : « فاصكة المبارك لا يزالون بخير مابقى فيهم هذا الرجل او احد من ولده » . وهو الذى أخذ البيعة لعبد المؤمن بعد وفاة المهدى .

(انظر : البيذق ، أخبار المهدى ، هامش رقم ٦٢ ص ٣٧ . البيذق ، كتاب الانساب ، هامش رقم ٣٩ ص ٣٢ . ابن ابى دينار ، المؤنس ص ١٣٠)

جمع أعيان تونس وخطب فيهم قائلا : « انا قد اخترنا لكم من يقوم مقامنا فيكم ، وآثرناكم به على شدة حاجتنا اليه ، وهو الشيخ أبو محمد » وكان وصول الخليفة الناصر الى مراكش فى ١٠ شوال سنة ٦٠٣ هـ / ١٠ مايو ١٢٠٧ (٦) .

ومنذ أن تولى الشيخ أبو محمد عبد الواحد الحفصى أمور افريقيـة وهو يؤدى عمله على أكمل وجه . وتصدت قواته بشدة لابن غانية الذى جمع عرب الدواودة من بنى عوف وسليم بنواحى تبيسه سنة ٦٠٤ هـ ، وسخرها لتعكير صفو الامارة الحفصية . لهذا فقد ركز الشيخ أبو محمد جهوده للقضاء على حركة ابن غانية فعمل على تشتت جموعه ومطاردة فلوله الى الجبال والصحارى (٧) . كذلك اهتم الشيخ الحفصى بتنظيم دواوين

---

(٦) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٣١٨—٣١٩ . التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد) الرحلة ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ ، ص ٣٦٢ . ابن القنفذ ، الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ، تقديم وتحقيق محمد الشاذلى النيفر ، عبد المجيد التركى ، تونس ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٥ وعن اهتمامه بشئون الولاية والنظر فى مسائلها مدحه الشاعر أبو اسحـاق ابراهيم الغسانى بقصيدة تدل على فضله فيها :

وماذا عن المداح أن يمدحوا بـه ... وفيه خصال ليس تحصر بالعدد
نهـارك فى تدبير ما يصلح الورى ... وليلك مقسوم على الذكر والورد

(ابن أبى دينار ، نفسه ص ١٣٠) . وبعد وصول الخليفة الناصر الـى مراكش توافدت عليه الوفود مهنئة ، وفيه يقول ابن مرج الكحل مشيرا الـى علامته الاميريـة :

ولما توالى الفتح من كل جهة ... ولم تبلغ الاوهام فى الوصف حـده
تركنـا أمير المـؤمنين لشكره ... بما أودع السر الالاهى عنـده
فلا نعمـة الا تـؤدى حقوقهـا ... علامتـه بالحمد لله وحـده

(السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ص ٢١٦) . انظر أيضا :

— Jamil, M.Abun-Nasir; A History of the Maghrib; Cambridge, 1971, p. 117—137.

(٧) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٨

الامارة ، واستحدث منها زمام التضييف لاستقبال الضيوف الوافدين على الدولة [٨] . ولما استكمل الشيخ المدة التى كان قد اشترطها على الخليفة استأذنه فى أن يسمح بالعودة الى مراكش حيث الاهل والبلد . ولكن الخليفة لم يستجب لطلبه ، فظل الشيخ الحفصى فى تونس حتى توفى فى سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) .

ثم حدث بعد وفاته نزاع شديد فى افريقية بسبب التنافس على الامارة ، فانقسم الناس الى فرقتين : مالت الاولى الى ابنه الشيخ أبى زيد ، ومالت الاخرى الى ابن اخيه ابراهيم بن اسماعيل بن أبى حفص . ورجحت كفة الفريق الاول وأنتهى الامر بالاتفاق على استخلاف ابنه أبى زيد فى امارة افريقية . وفى هذه الاثناء ، وصلت من مراكش كتب الخليفة الموحدى المنتصر بالله (تولى ٦١٠ هـ) بتولية عمه أبى العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن الذى كان يتصدى آنذاك لمحاربة ابن غانية ، وطلب الخليفة من أبناء الشيخ عبد الواحد العودة الى مراكش . ولكن عهد أبى العلاء كان قصيرا فلم يلبث أن توفى بتونس سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) أى بعد عامين فقط من توليه امارة افريقية . وقدم ابنه من القيروان بعد أن وصله كتاب الخليفة (عبد الواحد المعروف بالمخلوع) بولاية افريقية مكان أبيه [٩] .

ب ــ تطور نظام الخلافة الموحدية فى عهد بنى عبد المؤمن :

ولنقف قليلا لنسترجع ما وقع فى نظام الخلافة الموحدية وتعاليم المهدية التومرتية فى عهود بنى عبد المؤمن .

---

(٨) الوزير السراج ، الحلل السندسية ج ١ ص ١٠٢١

(٩) الوزير السراج ، الحلل السندسية ج ١ ص ١٠٢٣ . الزركشى ، المصدر السابق ص ٢٠—٢٢

فقد سبق فى الصفحات الاولى من البحث وحسبما سيتأكد تفصيليا فيما بعد الحديث عن الاساس الفكرى فى نشأة الخلافة الموحدية ونهج التمييز الذى أخذ به ابن تومرت وعبد المؤمن وخلفاؤهما فى سبيل الحفاظ على هذا الاساس • وكما سنوضح فيما يلى من فصول ، ذهبت الخلافة الموحدية الى ترجيح المقومات الفكرية لحركة الموحدين على المقومات السياسية والاقتصادية التى سبق أن تفوقت فى عصر الدولة المرابطية وكان ذلك الاساس الذى قامت عليه الثورة الموحدية • وبعد انتصار الثورة الموحدية وتطور نظام دولتها الناشئة ، ظهرت الحركة الفكرية الموحدية وكأنها قد استقرت على قاعدتين : احداهما فقهية استمدت أصولها من المذهب المالكى ، والاخرى عقائدية أخذت بالمذهب الاشعرى• وبعد استكمال بناء الدولة وبلوغ امبراطوريتها الى منتهاها فى الفتوح والتوسع ، عادت المقومات السياسية والاقتصادية تتغلب على الاسس الادارية فى الدولة ومن ثم أصبح حديث نهج التمييز مجرد رمز سياسى يجرى من أجل السلطة والحكم • ومثل هذا الحديث ينطلق أيضا على بقية شعارات الدولة المأخوذة عن الاصول الفكرية المهدوية للثورة الموحدية • ومع ذلك ، فان مجرد الاحتفاظ بهذه الشعارات كان يعنى أن الدولة قد استمرت تتمسك ببعض أصولها الفكرية ، ومن ثم حفظت لخلافتها المغربية مقوماتها المتميزة فى مجال المنافسة بينها وبين الخلافة المشرقية • وكان فى مقدمة هذه الشعارات تصدير الرسائل والخطب الموحدية بأسم « الامام المعصوم والمهدى المعلوم » واستمرار نقش أسم المهدى فى السكة الموحدية وترديده فى كافة الشعارات (١٠) •

ثم حدث بعد وفاة المهدى انشقاق فى أهل بيته من هرغة وتينملل

---

(١٠) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٦٦

على خلافة عبد المؤمن الى تعيين أبنائه على الاقاليم وما حمله هذا التعيين من معالم سياسية غالبة على غيرها من المعالم التى حملتها شعارات الثورة المهدية التومرتية • وزاد من غلبة المعالم السياسية اقدام عبد المؤمن فى عام ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م على التخلص من هؤلاء المنشقين بالقتل وتهجير بنى أمغار الى فاس واصدار الامر الى واليها الجيانى بأن يتعهدهم بالحراسة • وبذلك ، أخفقت المحاولة الاولى لثورة بيت المهدى بزعامة أخويه عيسى وعبد العزيز وأشياعهما من أهل هرغة وتينملل (١١)

ولم يلبث هؤلاء أن تمكنوا من الفرار الى مراكش حيث شرعوا فى الاعداد للثورة على عبد المؤمن من جديد • فتوجهوا الى واليها عمر بن تفراجين لاخذ مفاتيح المدينة وأمروا عبيدهم بقتله لرفضه أمرهم • وخرجت المدينة لقتالهم ، فقتل العبيد بالصباغين وعبد العزيز بباب الدباغين ، وعيسى عند باب ايلان ، وكاتبهم بباب أغمات ، وأخرجتهم العامة وعلقتهم بباب الشريعة • وعندما تم القبض على أولادهم ونسائهم عثر معهم على مجموعة كبيرة من الكتب تتضمن أسماء بقية المشتركين فى الثورة فأمر عبد المؤمن الحدادين بعمل القيود ، واستقدمهم مكبلين أمامه فى قصره ، فأمربة تلهم جميعا • وقدر عدد هؤلاء بنحو ٣٠٠ نهم خمسة من أعيان تجار المدينة (١٢) •

---

(١١) ولى الخليفة عبد المؤمن بن على أبناءه باسم السادة على الاقاليم الموحدية : أبو محمد عبد الله ببجاية وعمر فى تلمسان ، ويوسف فى اشبيلية ، وأبو سعيد فى غرناطة وعلى فى فاس وأبو الربيع فى تادلة ، وأبو زيد بن اللمطية فى السوس . (البيذق ، أخبار المهدى ص ٦—٧٧ . الوزير السراج ؛ الحلل السندسية ج ١ ص ٩٩١ . ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٨) .

(١٢) يزودنا البيذق بتفصيلات عن قتلهم فيقول : « .. جمع السوقة صغيرهم وكبيرهم وقال لهم : اليوم اعرف أن مالى اخوانا ولا جيرانا غيركم وأنتم أهل الامانات ، بارك الله لنا فيكم ، وأعطاهم السلاح سيوفا ورماحا ودرقا وسكاكين وأمرهم ان يعملوا زقاقا من ايمى ن تكمى (أى باب الدار بالبربرية)

وفى ظل المبادىء الفكرية للثورة الموحدية لم يكن هناك معنى ولا مغزى لثورة بيت المهدى • فالبيعة بالخلافة بعد المهدى تمت لعبد المؤمن الرفيق الاول للمهدى ، على نهج خلافة السلف الصالح • وتمسك عبد المؤمن فى سيرة حكمه بشعارات الثورة الفكرية الموحدية وقرب اليه من بقى من صحابة المهدى العشرة ، لا سيما الصاحب الاكبر أبو حفص • ولم يلبث الحكم بعد عبد المؤمن أن انحصر فى أسرته داخل نطاق من النظام الوراثى مع التمسك الظاهرى بشعارات الثورة الفكرية الموحدية (١٣) • وجاء التغيير الجدرى الثانى فى عهد الخليفة يعقوب المنصور ، عندما أجرى عدة تعديلات فى الاصول الفقهية والعقائدية للدعوة الموحديةبحجة أن الفقهاء قد تفرعوا بهذه الاصول مذاهب عدة • فأصدر أمره باحراق كتب هؤلاء الفقهاء ومنع الناس من الخوض فى علم الاصول والكلام وألف كتابا يلغى به كتاب المهدى جمع فيه من الكتب الصحاح ما يتعلق بأمور الدين وشجع الناس على حفظه بالمنح والاموال • وأمر على حد قول المراكشى : « جماعة ممن كان عنده من العلماء والمحدثين بجمع الاحاديث من المصنفات العشرة الصحيحين والترمذى والموطأ وسنن أبى داودوسنن النسائى وسنن البزار وسنن ابن أبى شيبة وسنن الدارقطنى وسنن البيهقى فى الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التى جمعها محمد بن تومرت فى الطهارة فأجابوه الى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه » (١٤) •

حتى الى السجن ، وأمرهم باخراج أعداء الله من السجن عشرة فى عشرة ، وكانوا يقتلون بخصائصهم ، فكل من قال منهم لاى شىء أقتل ؟ قيل له هذا كتابك ، فيعطا كتابه بيده ، كذلك فعل بهم حتى ماتوا جميعا .. فى عام ٥٤٩ هـ» البيذق ، نفس المصدر ، ص ٨—٧٩

(١٣) الجرارى ، الموحدون ، ص ١٠٦

(١٤) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٤ ، ابن الابار ، التكملة ج ٢ ص ٥٦٣ ابن الاثير الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ص ٥٧

وفى رأى البعض أن مسلك المنصور هذا كان يستهدف محو مذهب مالك كلية من المغرب وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، اذ لم يكن مؤمنا ايمانا كاملا بعصمة المهدى ولا بمذهبه [١٥] ، فكان يسأل الطلاب والعلماء عما يقرأونه ويغضب عندما يجد الطالب يقرأ تأليف المهدى ويقول : « ما هكذا يقول الطالب انما حكمك أن تقول قرأت كتاب الله وقرأت شيئا من السنة » [١٦] • ويتأكد عدم ايمانه بامامة المهدى من قوله لاحمد بن مطرف المرى ، وكان شيخا صالحا : « يا أبا العباس اشهد لى بين يدى الله عز وجل أنى لا أقول بالعصمة » • وفى مناسبة أخرى ، استأذنه فى فعل شىء يفتقر الى وجود الامام فخاطبه قائلا : « يا أبا العباس أين الامام ••• أين الامام » [١٧] •

وتتمثل فى قول القاضى الموحدى حفص بن عمر صورة لمؤثرات الحملة المذهبية المذكورة على الحركة الفكرية المعاصرة ، يقول : « اياكم والقدماء وما أحدثوا ، فأنهم عن عقولهم حدثوا • أتوا من الافتراء بكل أعجوبة وقلوبهم عن الاسرار محجوبة ، الانبياء ونورهم ، لا الاغبياء وغرورهم عنهم يتلقى وبهم يدرك السول » [١٨] •

ويبرر مثل هذا التدخل من جانب يعقوب المنصور فى الاطار الفكرى لدولته وخلافته قوة هذا الخليفة الموحدى وعظمة شخصيته المهيمنة والمتسلطة على كل شؤون دولته ، وضخامة انجازاته بالاضافة الى اجماع الموحدين حول كلمته • ولكن عندما يأتى مثل هذا التدخل من ابنه المأمون الذى يبلغ بتدخله الى حد اصدار أمره بابطال العقيدة

---

(١٥) المراكشى ، المصدر السابق ، ص ١٨٥—١٨٦
(١٦) المراكشى ، نفس المصدر ، الجرارى ، المرجع السابق ص ١٠٧
(١٧) المراكشى ، المعجب ص ١٩٣ الجرارى ، الموحدون ، ص ١٠٧
(١٨) جنون ، النبوغ المغربى ، ج ٢ ص ٣٥

التومرتية كلية ، فان الامر يتجاوز الحدود ويتحول هذا التدخل من جانبه الى مجرد بدعة من البدع التى تردت فيها الدولة الموحدية بعد موت يعقوب المنصور • فقد كان الحفاظ على هذه العقيدة ولو اسميا أمام الاخطار التى تكالبت عليها وهددت بسقوطها تزاحم الاعداء على الاندلس واستقلال بنى حفص بافريقية ، وتغلب بنى مرين على المغرب واستحواذهم على جميع بواديه •

ولقد واجه المأمون مع اتمام بيعته فى شوال ٦٢٤ هـ / نوفمبر ١١٢٧ م هذه الاخطار الى حد القول فى احدى خطبه : « معشر الموحدين لا تظنوا انى أنا ادريس الذى تندرس دولتكم على يده ، كلا انه سيأتى بعدى ان شاء الله » (١٩) • ومع ذلك ، كانت ثورة المأمون الكبرى على العقيدة التومرتية بنبذ فكرها ومهدويتها وأمامتها وعصمتها والى حد لعن المهدى فى خطبه علنا على المنابر فى جميع بلاده ومحى اسمه من النقش فى السكة وقطع النداء الذى كان معمولا به منذ بدء الدولة الى عهده(٢٠) ، وكتب فى كتبه بذلك الى جميع الاقطار بخط يده للعمل بها • وكان يرى أنه ليس الوحيد الذى هم بصدع ذلك الفساد بل كان والده الخليفة يعقوب المنصور من قبل يعمل على تحقيقه ولكن حياته لم تطل لاتمام ذلك العمل الجليل الذى وقع عبء تنفيذه عليه • وفى ذلك يقول فى رسالته : « من عبد الله ادريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الى الطلبة والاعيان والكافة ، ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم الله شكر نعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الايام الوسام ، وانا كتبناه اليكم كتب الله لكم عملا منقادا ، وسعدا وقادا ، وخاطرا سليما ،

---

(١٩) ابن الخطيب ، الاحاطة ج ١ ص ٤١٩ــ٤٢٠ . ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٢٥١ . السلاوى ، الاستقصا ج ٢ ص ٢٣٨

(٢٠) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٢٦٧

لا يزال على الطاعة مقيما ، من مراكش كلاها الله تعالى وللحق لسان ساطع ، وحكم قاطع ، وقضاء لا يرد ، وباب لا يسد ، وظلال على الآفاق ، تمحو النفاق ، والذى نوصكم به تقوى الله • والاستعانة به ، والتوكل عليه ، واتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدى الا عيسى بن مريم الناطق بالصدق ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله يعيننا على القلادة التى تقلدناها ، كما أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة ، وأسقطنا عنه وصفه ورسمه ، وقد كان سيدنا المنصور رضى الله عنه هم أن يصدع بما به الآن صدعنا ، وأن يرقع للامة الخرق الذى رقعناه ، فلم يساعده لذلك أمله ، ولا أجله اليه أجله ، فقدم على ربه بصدق نية ، وخالص طوية، واذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة فما الظن بمن لا يدرى بأى يد يأخذ كتابه أف لهم قد ضلوا وأضلوا ، وسقطوا فى ذلك وزلوا ، اللهم اشهد أننا نبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار ، ونعوذ بك من أمرهم الرثيث ، وفعلهم الخبيث ، لانهم فى المعتقد كفار ، والسلام على من اتبع الهدى واستقام » (٢١) •

كان المأمون الموحدى أديبا بليغا ، ومع ذلك فان ثورته المذهبية تلك ترتبط ارتباطا وثيقا بمبايعته بالخلافة الموحدية • صحيح أن بيعة أهل الاندلس ومراكش وصلت اليه فى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) الا أن أشياخ الموحدين نكثوا بيعتهم له بعد أن أقدم على قتل أخيه العادل ثم بايعوا ابن أخيه يحيى • وعرف المأمون بنكث الموحدين وهو فى طريقه الى مراكش قادما من الاندلس ، فأنشد قول الشاعر تمثلا بالخليفة الراشد عثمان بن عفان (رضى الله عنه) :

---

(٢١) كتاب الوثائق ، وثيقة رقم ٨٩ ص ٢٦٤ . أنظر ايضا فى : ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٦٧—٢٦٨ . مجهول ، الحلل ص ١٣٧ . ابن الخطيب ، الاحاطة ج ١ ص ٤١٩—٤٢٠ . جنون ، النبوغ المغربى ج ٢ ص١٠٢

لتسمعن وشيكا فى ديارهم
يالرجال الى ثارات عثمانا [٢٢]

كان المأمون داهية سياسية عندما استعان بالقاضى أبى الوليد بن أبى الاصبع بن الحجاج سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) لاعداد خطبة عيد الفطر حتى يتهيأ له أن يكشف ما فى نفوس أشياخ الموحدين نحوه اذا ما كانوا يضمرون الغدر به أم يسكنون عنه وفى هذا المسلك تحد صريح لاشياخ الموحدين . ثم عمد الى تأمين ظهره فاتصل بملك قشتالة ليمده بجيش يساعده على قتال ابن أخيه يحيى . وبعد أن وصل الى مراكش سنة ٦٢٧ هـ (٨ — ١٢٢٩ م) أمر أشياخ الموحدين وأعيانهم بالمثول بين يديه ، وخاطبهم بقوله : « يا معشر الموحدين أنكم قد أظهرتم علينا العناد ، وأكثرتم فى الارض الفساد ونقضتم العهود ، وبذلتم فى حربنا المجهود ، وقتلتم الاخوان والاعمام ولم ترقبوا فيهم عهدا ولا زماما ثم أخرج كتاب بيعتهم الذى بعثوا به اليه ، وعاتبهم على نكثهم لهذه البيعة وأدانهم ، فلما ثبتت ادانتهم سقط فى أيديهم ، فالتفت الى قاضيه (المكيدى) الذى قدم معه من اشبيلية وقال له : « ما ترى أيها القاضى فى أمر هؤلاء الناكثين ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول :«ومن نكث فانما ينكث على نفسه » . فقال المأمون : « صدق الله العظيم ، فانا نحكم فيهم بحكم الله ، ومن لم يحكم بما نزل الله فاولئك هم الظالمون » [٢٣] .

ثم أصدر المأمون أمره بعد ذلك بسحب جميع أشياخ الموحدين

---

(٢٢) ابن أبى زرع ، القرطاس ص ٢٥٠

(٢٣) عن تدبير الخطبة أنظر : ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٢٥٤ ، ٢٥٦ ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٢٥١ . السلاوى ، الاستقصا ج ٢ ص ٢٣٨ جنون ، النبوغ ج ٢ ص ١٠٤

وأشراقهم الى مصارعهم ، فقتلوا جميعا ولم يبق منهم لا على صغير ولا كبير • ويسوق لنا ابن عذارى أيضا قصة تصور مدى عنف المأمون فى علاج مسألة بيعته الى حد أنه لم يراع أى صلة قربى أو رحم ، ولا حتى الطفولة البريئة ، وذلك عندما أتى دور ابن أخت له صغير يبلغ من العمر ثلاث عشرة عاما وخاطبه قائلا : « يا أمير المؤمنين أعف عنى لثلاث ، صغر سنى ، وقرب رحمى ، وحفظى لكتاب الله العزيز » • فنظر المأمون الى قاضيه يستشيره قائلا : « كيف ترى قوة جأش هذا الغلام وأقدامه على الكلام فى هذا المقام ؟ » فقال القاضى : « يا أمير المؤمنين انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يادوا الا فاجرا كفارا » فأمر به فقتل (٢٤) •

وفى رواية أخرى أن ما يزيد على أربعة آلاف رأس من رؤوس القتلى سيقت الى مراكش ، وعلقت على أسوارها الى أن فاحت الروائح الكريهة منها فطلب منه كاتبه الغزارى ازالتها ، فكان جواب المأمون : « ان هاهنا مجانين ، هذه الرؤوس أحراز لهم ، عطرة عند المحبين كريهة عند المبغضين » (٢٥) • وهذا يعنى فى نظر المأمون أن ما فعله انذار لكل من تسوله نفسه على الخروج على تعاليمه ومخالفته ، وأن هؤلاء القتلى استحقوا تلك العقوبة وفى ذلك يقول متوعدا كل مخالف :

أهل الحرابة والفساد فى الورى
يعزون فى التشبيه للذكار
فقساده فيه الصلاح لغيره
بالقطع والتعليق فى الاشجار

---

(٢٤) ابن عذارى ، المصدر السابق ، والصفحة .

(٢٥) الحلل ، ص ١٣٨—١٣٩ . السلاوى ، نفس المصدر ص ٢٣٨

ذكـــارهم ذكـــرى اذا ما أبصـــروا
غـــوق الجذوع وفى ذرى الاســـوار
لـــو عم حكم اللـــه ســـائر خلقـــه
ما كـــان أكثرهم من أهـــل النـــار (٢٦)

لم نقف ثورة المأمون على الموحدين عند حد هذه المذبحة الاليمـــة التى أنزلها بهم ، بل تعداها الى النيل من العقيدة التومرتية كما سبـــق الذكر • وتمادى أكثر فى هذا السبيل ، فألغى ما أبتدعه المهدى من نداءات بربرية فى الصلاة مثل القول فى آذان الصبح « أصبح ولله الحمـــد ، تاصليت الاسلام ، سودود ناردى » (٢٧) • وبلغ الامر حد محـــو اسم المهدى من السكة بل أمر فى عام ٦٢٧ هـ بتدوير الدراهم التى كان قـــد ضربها المهدى مربعة • وكانت دراهم الموحدين تمثل مرحلتين : الاولى فى عهد عبد المؤمن ومن جاء بعده من الخلفاء الذين كانوا يعترفون بامامـــة المهدى وتتميز بأن وجه بعض الدراهم وأنصافها من هذا العهد قـــد نقش على وجهه : « الله ربنا ، محمد رسولنا ، المهدى أمامنا » ،والمرحلة الثانية بعد رفض امامة المهدى ابتداء من عهد المأمون وقد نقش على وجههـــا « الله ربنا ، محمد رسولنا ، القرآن امامنا » (٢٨) •

ولم تلبث العقيدة التومرتية أن استعادت شرعيتها فى عهد الرشيد

---

(٢٦) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ٢٦٦ . الحلل نفس الصفحة .
(٢٧) ابن عذارى ، نفس المصدر ص ٢٦٧ . ابن الخطيب ، الاحاطة ، ص ٤١٩ـ ٤٢٠ . السلاوى ، الاستقصا ج ٢ ص ٢٣٥ . عنان ، عصـــر المرابطين ، العصر الثالث ، ص ٢٧٠.
(٢٨) د. عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة العربية من مجموعات متحف الفن الاسلامى ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص . انظر أيضا :
— Lavoix, H.; Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, 3 Vols, Paris, 1887, p. 192.

بن عبد المؤمن ، ومن ثم استعاد أشياخ الموحدين مكانتهم [٢٩] وأكتسبت الدولة الموحدية من جديد بعض مقوماتها التاريخية التى كانت قد أفتقدتها فان تعاقب الثورات وحوادث اخمادها فى تلك الصورة الدامية المذكورة كان قد أثر تأثيرا مباشرا على المقومات السياسية والحربية والاقتصادية اللازمة لضمان استقرار الخلافة الموحدية فى المغربين الاقصى والاوسط. لذلك ، جاء بعث الروح فى هذه الخلافة على يد أبى زكرياء الحفصى فى افريقية حصيلة طبيعية تجمع فيها كل صوت موحدى مؤيد لاستمرار الدولة الموحدية وخلافتها .

ج — دولة أبى زكريا الحفصى [٣٠] :

بدأ أبو زكريا جهوده لسلب مراكش خلافتها الموحدية وذلك عن طريق بث العيون فى الامصار الغربية لتأليب أهلها على المستضعفين من الموحدين الذين محوا أسم المهدى ورسمه . وبدأ بأخيه عبو والى افريقية الذى رفض خطته الثورية ، فاتفق مع زعماء قابس على التخلص منه ، ونجح فى اغراء فقهاء القيروان بالخطبة له سرا فى تونس . ولم يلبث أبو زكريا . أن استولى فى عام ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م على القيروان ثم اتجه الى تونس فدخلها فى رجب من نفس العام . وفى العام التالى ، أعلنت طرابلس ولاءها له وتمكنه فيها بين عامين ٦٢٨ — ٦٣١ هـ / ١٢٣٠ — ١٢٣٣ م من ضم القسم الشرقى من المغرب الاوسط على أثر حملة سيرها الى تلمسان قوامها أربعة وستون ألف مقاتل بسبب وقوف بنى يغمراسن الزيانيين بها ضد دعوته . وفى هذه الحملة ، تقدم كل من عبد القوى بن توجين وأبى العباس بن منديل المغراوى — أقوى زعماء زناتة

---

(٢٩) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٣٠٥—٣٠٦

(٣٠) الوزير السراج ، الحلل السندسية ج ١ ص ١٠٢٣ — ١٠٢٧ . الزركشى ، تاريخ الدولتين ص ٢٧ . ابن أبى دينار ، المؤنس ص ١٢٣ .

فى غرب الجزائر ــ لمساعــدة أبى زكريا فى انتزاع تلمسان[٣١] من أيدى الزيانيين ، وتم استيلاء الحفصيين على تلمسان فى عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م

تمت البيعة الاولىلابى بكر زكريا للخلافة الموحديةفىعام ٦٢٦هـــ١٢٢٨م من أشياخ الموحدين فى افريقية وطــرابلس وقسنطينة وبجاية • وجاءت البيعة فى عام ٦٣٤هـ ــ ١٢٣٧م من كافة الموحدين خواصا وعواما واكتفى أبو زكريا بلقب الامير فى الخطبة مع ذكر اسم المهدى وخلفــائه • ومن ثم أهمل كلية ذكر اسم الخليفة الموحدى (المأمون) فى مراكش كما أن تلقبه بالامارة لم يستكمل بعد رسم « أمير المؤمنين » بالرغم من ميل الشعراء الى الاخذ بالرسم الكامل فى المديح لابى زكريا[٣٢] •

ومع ذلك ، فقد اعتمد الحفصيون فى اعلان خلافتهم بافريقية والمناطق التابعة لهم على الاصل العــربى ، والنسب النبوى ، الى جانب قرابتهم للموحدين ، فــزعموا أنهم من ســـلالة الخليفــة أبى حفــص عمر بن الخطاب[٣٣] ، وهكذا توفرت لديهم كل المقومات الشرعية ليرثوا خــلافة المــوحــدين •

وفى سنة ٦٤٠هـ ــ ١٢٤٢م تلقى أبو زكــريا البيعة من كل من قصر عبد الكريم وسبتة وسجلماسة وبينما عادت سجلماسة فى نفس السنة الى التبعية لبنى عبد المؤمن فى مراكش فان ابن خالص حاكم سبتة ظل يحــكم

---

(٣١) أبو زكريا يحيى بن خلدون (ت ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م) ، بغية الرواد فى ذكر ملوك بنى عبد الواد ، نشره الفرد بل ، الجزائر ١٩٠٣ ، ص ٩ــ١٠ ، ٢٠ــ٢١ •

(٣٢) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٣ ص ٢٢٦ــ٢٢٨ •

(٣٣) العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ص ٣ــ١٢٤ ؛ واعتزازهم فهم بهذا الاصل أطلق كتابهم وشعراؤهم على دولتهم أسم العمرية والفاروقية . أنظر أيضا :

— Brunschvig; La Berbérie Oriental Sous Les Hafsides, II, p. 18.

هذه المدينة باسم الامير أبى زكريا الحفصى[٣٤] • وحدث فى عام ٦٤٦هـ — ١٢٤٨م أن استولى النصارى على اشبيلية التى كانت تدعو له ، كما توفى فى نفس العام ابنه يحيى وولى عهده ونائبه على بجاية • ومن ثم انتقلت ولاية العهد الى ابنه الثانى المستنصر قبل عام واحد من وفاة أبى زكريا • وكان الجديد البارز فى حوادث هذه الفترة أن الدولة الحفصية الفتية أصبحت أمل أهل الاندلس الذين سقطت مدنهم تباعا وأصبحت ملاذا لهجرة العديد من الاندلسيين الساعين الى الحماية الحفصية وترددت أصوات شعراء الاندلس تستنهض همم الحفصيين معقد آمالهم من ذلك قول ابن الآبار :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا أن السبيل الى منجاتها درسا[٣٥]

ويذكر المقرى فى أزهار الرياض أن أبا زكريا الحفصى أرسل أسطولا من ١٨ سفينة شحنها بالمؤونة والسلاح ، ولكن هذه السفن أخفقت فى تفريغ شحنتها لشدة الحصار المحكم حولها واضطرت لافراغ حمولتها فى دانية أما بلنسية فقد استسلمت للعدو فى ١٧ صفر سنة ٦٣٦هـ — سبتمبر ١٢٣٨م[٣٦] •

---

(٣٤) ابن القنفذ ، الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ، ص ١١٠ .

(٣٥) أزدهرت الدولة الحفصية فى عهد أبى زكريا وتقاطرت عليه البيعات من مختلف الانحاء ، فوصلت اليه فى عام ٦٤٣ هـ البيعة من اشبيلية والمرية وشريش وطريف (انظر ، ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١١٠) ويذكر الزركشى أنه نتيجة لتضييق العدو على أهل الاندلس ، استغاث أبو جميل زيان بن أبى الحملات مدافع أمير بلنسية بأبى زكريا وأرسل له بيعته فى سنة ٦٣٦ هـ مع ابن الابار صاحب تلك القصيدة (تاريخ الدولتين ، ص ٢٧) وكاتبه ووزيره الذى أرسله سفيرا من قبله مع وفد من أهل بلنسية يستصرخ أبا زكريا يحيى لانجاد بلنسية قبل أن تقع فى قبضة ملك أرغونة . وقد روى ابن الابار فى الحلة السيراء انه قدم تونس رسولا من قبل أبى جميل زيان بن سعد والى بلنسية ودانية فى منتصف عام ست وثلاثين وستماية (ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة ، ج ١ ترجمة رقم ٧٠٥) .

(٣٦) د. عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٨٣١ (١٩٦٦م) .

(٢)

تطور العلاقات الخارجية للحفصيين مع المشرق الاسلامى
(فى عهود الخلفاء : المستنصر — اللحيانى ،
الواثق — أبى العباس)

جاء فى وصية أبى زكريا لابنه المستنصر من الارشادات عن قواعد الحكم الصالح ما يعد ترجمة صادقة للسياسة التى اتبعها فى ارساء أسس دولته والتجارب التى خاضها فى علاقاته السياسية المختلفة • فكانت الوصية أشبه بدستور مرشد بليغ ، الامر الذى تستحق من أجله أن يسجل بعض ما جاء فيهافى هذا الموضوع من البحث ليكون منارا يلقى الضوء على ما يليه من أخبار الدولة الحفصية •

يقول أبو زكريا فى وصيته المذكورة : « سددك الله وأرشدك وهداك الى ما يرضيه وأسعدك ، وجعلك محمود السيرة ، مأمون السريرة : أن أول ما يجب على من استرعاه الله فى خلقه ، وجعله مسؤولا عن رعيته ، أن يقدم رضاء الله تعالى فى كل أمر يحاوله ، وأن يكل أمره وحوله وقوته لله ، ويكون عمله وسعيه وذويه من المسلمين وحربه ، وجهاده للمؤمنين بعد التوكل • وأحسن الى كبير جيشك وصغيره ، الكبير على قدره والصغير على قدره ، ولا تلحق الحقير بالكبير ، فيكون احسانك اليه مفسدة فى كلا الوجهين ، ويضيع احسانك ، وتشتت نفوس من معك فاتخذ كبيرهم أبا وصغيرهم ابنا ، اخفض لهم جناح الذل من الرحمة ، وشاورهم فى الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين • واتخذ نفسك صغيرة ، وذاتك حقيرة ، ولا تسع كلام الغالطين ، وعليك بتفقد أحوال رعيتك والبحث عن عملهم ، والسؤال عن سيرة قضاتهم فيهم ولا تنم عن مصالحهم ، ولا تسامح أحدا

فيهم ، فاكشف عنهم كلمة ملمة ، ولا تراع فيهم كبيرا ولا صغيرا اذا عدلُ عن الحق »[٣٧] .

عمل أبو زكريا على تدعيم علاقاته بكل الدول المحيطة الاسلامية كانت أم مسيحية ، فقد عقد معاهدات تجارية وحسن الجوار مع البندقية فى سنة ٦٢٨هـ — ١٢٣١م ، ومع بيزة سنة ٦٣٢هـ — ١٢٣٤م ، ومع جنوة سنة ٦٣٤هـ — ١٢٣٦م ، وفى عام ٦٣٧هـ — ١٢٣٩م أرسل اليه فردريك الثانى ملك صقلية قنصلا كما أقام مع ملك أرغمون علاقات دبلوماسية[٣٨] .

هذا ولقد أقام أبو زكريا مع السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مصر علاقات ودية تظهر من خلال الحملة التى شنها الصليبيون على دمياط فى عام ٦٤٧هـ — ١٢٤٩م وكان أبو زكريا قد وصلته أنباء مسبقة عن تلك الحملة على مصر فأرسل الى الملك الصالح يحذره لكى يؤمن جانبه ويتخذ أهبته لمنازلة الحملة . وتتضارب أقوال المؤرخين بشأن هذا الخبر فمن رأى المقريزى على سبيل المثال أن الملك الصالح كان فى دمشق بالشام آنذاك[٣٩] وأن الامبراطور فردريك الثانى (ملك صقلية) بحكم علاقات الصداقة القائمة معه من عهد الملك الكامل قد أسر الى الملك الصالح بعزم لويس التاسع ملك فرنسا على السير الى أرض مصر وامتلاكها . وكان الملك الصالح أيوب مريضا فى تلك الفترة ، فحمل الى مصر على محفة ليكون قريبا

---

(٣٧) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٦٢٠—٦٢٣ .

(٣٨) بوفاة أبى زكريا سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م نقض نصارى صقلية عهدهم وعذبوا المسلمين وأجلوهم عن ديارهم وطردوهم الى افريقية بل تجاوزوا ذلك الى طرد مسلمى جزيرة مالطة أيضا . انظر :

— Abun Nasir; Ibid., p. 139—140.

— Burnschivg, La Berbérie, T. I, p. 34.

(٣٩) المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ص ٣٨٤ .

من ميدان المعركة[٤٠] . ويؤكد ابن القنفذ أن الملك الصالح علم بأمر تلك الحملة وهو بمصر[٤١] ، وأنه سمع بخبرها من رسول أبى زكريا اليه ، وفى ذلك يقول : « ... وأنه لما تحقق قصد الفرنسيس الى الديار المصرية قبل أن يبلغ ذلك الملك الصالح فوجه كتابه فى ذلك فى البر الى الملك الصالح فدخل عليه الرسول بالقاهرة فجاءه بالكتاب ، فاذا فيه بالاعلام بما عزم عليه العدو — دمره الله — والاعتذار على عدم المبادرة اليه بنفسه وجنده ، لما يخشى من عدو صقلية المجاورة له ، ومن أعراب افريقية »[٤٢] .

وبلغت علاقات حسن الجوار بين الحفصيين فى افريقية والايوبيين فى مصر فى تلك الآونة درجة كبيرة من الود الى حد أن الاسكندرية اعتبرت لدى الحفصيين موطنا للاعيان المغضوب عليهم من الدولة الحفصية . وفى هذا يروى الزركشى عن الوزير الحفصى ميمون بن موسى الهنتاتى الذى غضب عليه أبو زكريا وقبض عليه فى عام ٦٢٦هـ — ١٢٢٩م واستصفى أمواله ثم « بعث به الى قابس واعتقل بها مدة طويلة ، ثم صرفه الى الاسكندرية . واستوزر مكانه أبا يحيى بن أبى العلاء بن جامع الى أن هلك فاستورز من بعده بن أخيه »[٤٣] .

وقد استطعت أن أصل فى تفسير التقارب الودى القائم بين العاهلين الحفصى والايوبى الى الافتراضات التالية وذلك من خلال دراستى للنصوص القليلة المتعلقة بعلاقات أبى زكريا السياسية مع الايوبيين ،

---

(٤٠) المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٨٤ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٣٣٤—٣٣٥ . سعيد عاشور وآخرون ، مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٠ ص ١١٢ .

(٤١) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١١٢ .

(٤٢) ابن القنفذ ، نفس المصدر والصفحة .

(٤٣) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٩ ، ٢٤ . أنظر أيضا : ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٥٩٦ .

والعلاقات الدولية المتوازية التى أقامها مع الدول المجاورة ، ومن خلال وصيته لابنه بشأن أساليب الحكم الصالح :

١ ــ من الجائز أن يكون أبو زكريا قد أدرك المتغيرات التى طرأت على العلاقات الموحدية مع المشرق الاسلامى فهذه العلاقات التى كانت تصلح فيما مضى مع خلافة متداعية فى دور الاحتضار مثل الدولة الفاطمية أو مع الخلافة العباسية التى شاخت وتهالكت وحتى مع دولة ناشئة مثل الدولة الايوبية فى عهدها الاول لابد أن تتطور بحكم الاوضاع المتغيرة • فالدولة الايوبية قد اجتازت مرحلة نشأتها وأثبتت مقدرة كبرى على التطور الى دولة اسلامية شرقية كبرى فى ظل الخلافة الروحية للعباسيين •

٢ ــ لا نستبعد أن يكون أبو زكريا قد ربط بين سياسته الخارجية مع الدول الاسلامية وبين علاقته بدولة الموحدين فى المغرب الاقصى • والظاهر أنه أدرك أن ذلك يستلزم منه أن يحدد أول كل شىء الرابطة السياسية والروحية بين دولته وبين الدولة الام الموحدية فى مراكش • وبالتالى يستلزم الامر تجنب فتح جبهة شرقية مع انشغال الدولة الحفصية بتسوية مسائل علاقاتها المعلقة مع الدولة الام وأملاكها الغربية • ومن الغريب أن ما حدث مع الحفصيين تكرر حدوثه مع الايوبيين ، فقد شهدت الدولة الايوبية بداية حركة انفصالية مماثلة للحركة الحفصية تمثلت فى اقدام المنصور بن رسول عمر بن على بن رسول نور الدين على تأسيس الدولة الرسولية باليمن والاستقلال بها عن الايوبيين سلاطين مصر والشام(٤٤) •

٣ ــ كذلك لا نستبعد أن يكون كل من الحفصيين والايوبيين قد أدرك

---

(٤٤) ابن خلدون ، نفس المصدر ، ص ٥٩٦ . على بن الحسن الخزرجى كتاب العقرد اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، تحقيق محمد بسيونى عسل ج ١ ، القاهرة ١٩١١ ، ص ٢٨ــ٤٤ .

أن الخطر الاكبر على دولتيهما يكمن فيما اذا تصاعد الخطر المسيحى (الصليبى) وتجاوز القدرة الجهادية للدول الاسلامية ، لا سيما بعد أن نال الضعف الشديد بكل من الخلافتين الموحدية والعباسية ، ولم يعد التنافس الروحى بينهما ورقة سياسية ضاغطة فى العلاقات الاسلامية بين المشرق والمغرب .

ومن خلال هذه الافتراضات ، كان على العلاقات الحفصية الايوبية أن تأخذ بالاعتبار حماية المصالح المشتركة بينهما ودعم روح الجهاد حسبما دلت الاشارات المحدودة السابق ذكرها عن خبر الحملة الصليبية على دمياط وخبر نفى الوزير الحفصى الى الاسكندرية .

وتوفى السلطان الحفصى أبو زكريا فى بلاد عنابة (بونة) فى عام ٦٤٧هـ — ١٢٤٩م ودفن بجامعها ثم نقل فيما بعد الى قصبة مدينة قسنطينة. واتفق أن انتهت بوفاته حياة معاصريه من الحكام الذين ارتبط معهم بعلاقات ما وهم : الملك الصالح أيوب سلطان مصر والشام[٤٥] ، والمنصور بن رسول صاحب اليمن وملك نصارى الاندلس (الاندور) حسب رسم صاحب الفارسية[٤٦] . وكانت وفاته العاجلة نهاية لما أصابه من غم شديد حزنا على الوفاة المبكرة لابنه وولى عهده المحبب اليه الذى رثاه بقصيدة جاء فيها :

---

(٤٥) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٤٦) هكذا جاء اسم (الاندور) فى الاصل ، والرسم اقرب الى اسم فرناندو القديس . والمعروف فى تاريخ الاندلس أنه ابتداء من عام ١٢٤٨ م استولى من المسلمين على اشبيلية وجيان وقرطبة ومرسية ملك قشتالة فرناندو الثالث الملقب بالقديس . والمعروف أيضا تاريخيا أن هذا الملك قد مات فى عام ١٢٥٢ وليس فى عام ١٢٤٩م وأن هذا العام الاخير قد شهد أيضا قيام الفونسو الثالث على عرش البرتغال (١٢٤٨ — ١٢٧٩ م) بعد أن قاد الثورة بايعاز من البابوية على حكم أخيه سانشو الثانى . ولعل صاحب الفارسية قد وقع لديه

ألا جازع يبـــكى لفقـــــد حبيبـــه
فانى لعمـــرى قد أضـــــر بى الثكل
لقـــد كان لى مال وأهـــــل فقـــدتهم
فهـــــأنا لا مـــــال ولا أهـــــــل
ســـــأبكى وأرثى حسرة لفـــــراقهم
بـــــكاء قـــريح لا يمـــل ولا يســـــل
فلهجى ليـــوم فـــرق الدهـــــر بيننـــا
ألا فـــــرج يـــرجى فينتظـــم الشمـــل
وأنى لارضى بالقضـــــــاء وكلمـــــة
وأعـــــلم ربى انه حاكـــم عـــــدل(٤٧)

ثم بويع الامير أبو عبد الله بن أبى زكريا (المستنصر) البيعة الاولى فى بونة سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م بعد وفاة أبيه مباشرة • ثم بويع البيعـــة الثانية بعد وصوله الى تونس الحاضرة الحفصية ، فى شهر رجب من نفس السنة • وأحتفظ أيضا بنفس لقب الامير الذى أخذ به أبوه وكان ذلك فى شهر ذى الحجة من عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م •

وبالاطلاع على نص وصية أبيه اليه التى أشرنا اليها من قبل يتضح التناقض أمام الدارسين بينها وبين الوصف الذى أنتهى اليه المؤرخون فى

الخلط بين حدث سقوط هذا الملك البرتغالى ضحية ثورة أخيه وبين حـــدث سقوط اشبيلية سنة ١٢٤٨ م على يد فرناندو القشتالى . أنظر ، ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١١٥ .

— Sidney Painter; A History of the Middle Ages, London, 1968, p. 196.
— Atkinson, W.C. A History of Spain and Portugal, London, 1970, p. 92.

(٤٧) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ . ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٣٢١ .

قولهم عنه أنه كان فى غاية الجبروت الى حد أن رجال دولته نقموا عليه والى حد أن عمه أبو عبد الله بن عبد الواحد المعروف باللحيانى أعلن الثورة عليه (٤٨) .

وفى عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م أصبحت علامة الدولة الحفصية بنفس اللقب الخلافى : أمير المؤمنين ولم تمض على ذلك ستة أعوام حتى سقطت الخلافة العباسية فى بغداد على أيدى المغول وقتل الخليفة العباسى المستعصم بالله وخلا المشرق الاسلامى من وجود خليفة عباسى مدة ثلاث سنوات (٦٥٦ — ٦٥٩ / ١٢٥٨ — ١٢٦١ م) . وهذا يعنى أن الخلافة الاسلامية صارت خلافة واحدة هى خلافة الموحدين ، وهو ما تأكد بالفعل عندما أتت البيعة من مكة فى عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ — ١٢٥٩ م الى الخليفة الحفصى أبى عبد الله محمد الملقب بالمستنصر (٤٩) . ولم يبق أمام خلافة الحفصيين الموحدية غير علاج ازدواجية رمز السلطة فى هذه الخلافة بين تونس ومراكش . وسرعان ما عادت الخلافة الحفصية الى وضعها السابق على أثر قيام السلطان الظاهر بيبرس باحياء الخلافة العباسية فى مصر فأستقدم أحد امراء بنى العباس وهو أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسى من دمشق لهذا الغرض فى عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م ، وأقر القضاة وجماعة العرب اتصال نسبه بنسب العباس بن عبد المطلب فبويع بالخلافة ولقب بالمستنصر بالله ومع ذلك فقد أثيرت الشكوك حول صحة نسب المستنصر هذا وفى ذلك يقول أبو الفداء « وفى هذه السنة قدم الى مصر جماعة من العرب (٥٠) . ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الامام

---

(٤٨) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٣٢٢ .
(٤٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢٧ .
(٥٠) هم عرب خفاجة (راجع النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٨ القسم الاول ، المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص ٤٤٧ .

الظاهر بالله بن الامام الناصر » [٥١] . غير أن هذا الامام لم يلبث أن قتل على أيدى المغول سنة ٦٦٠ هـ أثناء توجهه الى العراق لاعادة الخلافة العباسية فى بغداد ، فتأجل البت فى مشكلة الخلافة العباسية الى حين احيائها من جديد بالقاهرة فى عام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م فى شخص الامير العباسى أبى العباس أحمد الذى بويع له بالخلافة فى مصر وتلقب بالحاكم بأمر الله . ويعلق المقريزى على وضع الخلافة العباسية الجديدة فى القاهرة بقوله : « .. أن خلافة الخليفة العباسى ، ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » [٥٣] .

معنى ذلك أن الخلافة العباسية فى القاهرة احتفظت بمعالم مشكلتها التى وقف على معالمها ابن تومرت منذ رحلته المشرقية وكانت سببا فى اعلان ثورته المهدوية وقيام الخلافة الموحدية . وقد لحق الحفصيون بنفس الطريق عندما سعوا الى تجديد الخلافة الموحدية ونصبوا أنفسهم عليها فى دولتهم الحفصية . وكان قبول المماليك بخلافة عباسية رمزية حافزا دعا الخليفة الحفصى الى دعوة هؤلاء الى التحول بولائهم الروحى الى الخلافة الموحدية ووضع حد للخلافة المزدوجة . لذلك ، عندما وصلت الى الخليفة المستنصر الحفصى بيعة شريف مكة (أبو نمى محمد بن أبى سعد الحسن بن على بن قتادة من ولد موسى الجون بن عبد الله المحض الحسنى) [٥٤] . كان

---

(٥١) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص ٤٥٣ — ٤٥٧ . ، أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .

(٥٣) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٢ ، ٥٤٤ . المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ .

(٥٤) عبد الملك العصامى المكى ، سمط النجوم العوالى فى أنباء الاوائل والتوالى ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ . كتب هذه البيعة : عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن سبعين المرسى عن شريف مكة ، ووصلت على يد أبو محمد ابن برطلة (الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٣٧) .

لهذه البيعة المكية وقع كبير فى البلاط الحفصى ، فأحتفل المستنصر الموحدى بها احتفالا عظيما ، وقرأها بنصها الكامل الطويل على منبر جامع الزيتونة ، وتسمى من يومها بأمير المؤمنين ، وسجل الشعراء الحدث حسبما جاء فى الابيات التالية :

أهنـأ أمير المـــؤمنين ببيعـــــة
جـاءتك بالاقبـــال والاسعـــــاد
فلقد حبـــاك بمكـــة رب الـــورى
فأتى بشير بأفتتـــاح بـــــــلاد
واذا أتت أم القـــرى منقـــادة
فمن المبـــرة طاعـــة الاولاد (٥٥) .

وعن الاحتفال بالبيعة المكية ، يقول ابن خلدون : « .. أن البيعـــة لما وصلت استحضر لها السلطان الملا والكافة وقرئت بمجمعهم وقـــام خطيبهم القاضى ابن البراء . وفى ذلك المحفل فأبلغ فيها فاحتفـــــز فى تعظيمها والاشادة بحسن موقعها ، واظهار رقعة السلطان ودولته بطاعة أهل البيت والحرم ودخولهم فى دولته ثم جأر فيها للسلطان بالوعاء،وانفض الجميع ، فكان من الايام المشهودة فى دولته » (٥٦) .

ويذكر المقريزى فى السلوك أن بيبرس أراد ابطال ادعاء السلطـان الحفصى بالخلافة فكتب اليه « مثلك لا يصلح أو يلى أمور المسلمين » (٥٧)

---

(٥٥) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٢٥ . ويذكر أنه جاء فى نهايـــة الرسالة :
(كتبت تجاه الكعبة المعظمة فى الجانب الغربى من الحرم الشريـــف) . ص ٢٣٨ .
(٥٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٦٣٤ — ٦٥١ .
(٥٧) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

ومع ذلك فقد اختلف الرواة حول تاريخ هذه البيعة فذكر بعضهم انها تمت فى عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م وذكر البعض الآخر أنها أرسلت فى عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م (٥٨) .

أكدت البيعة المكية للخليفة الحفصى الحقيقة بأن الخلافة العباسيةفى الشرق الاسلامى قد فقدت أهم دعائمها بعد أن تلقت الضربة القاضية مرتين على أيدى المغول ، وجاءت البيعة المكية أشبه بضربة كبرى أخرى أنذرت بالقضاء أيضا على محاولة احياء هذه الخلافة فى القاهرة . لذلك كان يحق للدولة المملوكية الناشئة أن تتضرر كثيرا من هذا الحدث وأنيسود التوتر علاقاتها بالدولة الحفصية لفترة زمنية قصيرة . ولكن ظهر أن هذا التوتر لم يمنع اشتراك الدولتين فى التحرر من الخطر الصليبى الذى مثلته حملة لويس التاسع (الحملة الصليبية الثامنة) على تونس سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م كما سبق أن مثلته نفس الحملة الصليبية على دمياط فى سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م (٥٩) وأنتهت بأسر لويس فى دار ابن لقمان وتعهده بألا ينزل فى أى أرض للاسلام نظير اطلاق سراحه وبعد عودته الى فرنسا ، حنث بوعده وقرر العودة الى مصر على رأس حملة جديدة أنتهت بالنزول فى تونس بدلا من مصر ، وهلك فيها الملك الفرنسى سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م مع معظم جيشه بالقرب من قرطاجنة بعد أن تفشى فيهم الوباء . وخرج بقية أجناد الحملة من البلاد التونسية بعد عقد الصلح وبشرط عدم

---

(٥٨) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٣٤ . ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ . تاريخ الدولتين ، ص ٣٢ . وفيها يذكر أنه تم مبايعة الناس البيعة العامة ، ووضع العلامة التى كان يمهر بها هى : « الحمد لله والشكر لله » وانقسمت علامة الدولة الى قسمين علامة كبرى توضع فى أول الكتاب بعد البسملة والصغرى معلمة فى آخره لصدوره عن الخليفة .

(٥٩) — Runciman, S.; A History of the Crusades (3 vols) Cambridge, 1951, pp. 273—274.

التعرض لاى جهة من البلاد وابرام هدنة لمدة خمسة عشر عاما مع منح فرنسا أرضا بقرطاجنة لاقامة ضريح الملك لويس (٦٠) .

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين الدولة الحفصية ودولة المماليك حول وقائع هذه الحملة الصليبية ، فان المصادر لم تذكر من اشارة غير ما حملته القصيدة التى ألقاها شاعر تونسى تعبر أبياتها عن مشاعر الجهاد المشترك بين تونس ومصر ضد قوى الصليبيين مطلعها :

يا فرنسيس تونس أخت مصر
فتهيأ لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر
وطواشيك منكر ونكير (٦١)

ويستدل من أخبار العام التالى ٦٧٠ هـ / ١٢٧٢ م على أن العلاقة بين الدولتين من خلال احداث الحملة الصليبية الثامنة قد تعدت حدود هذه المشاعر . فهل قدم المماليك للحفصيين عونا ضد حملة لويس التاسع على تونس ؟ وهل قدم الحفصيون فى مقابل المساندة المملوكية التىحصلوا عليها نوعا من المساعدة الى الظاهر بيبرس فى حملته الاخيرة ضد سلاجقة الروم ؟ هذه الاسئلة يعززها خبر هام أوردته المصادر العربية فى هذا العام نفسه (٦٧٠ هـ) عن وصول السفير الحفصى أبى عبد الله محمد بن الراسى على رأس سفارة الى السلطان الملك الظاهر بيبرس فى الوقت الذى كان الظاهر بيبرس مشغولا بصد هجمات المغول على بلاد الشام لا سيما على البيرة فى سنة ٦٧٠ — ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ — ١٢٧٣ م

---

(٦٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٦٦٣ — ٦٧١ .
(٦١) ابن خلدون ، نفس المصدر ، ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٣٦ .
ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١١١ .

وحدث أن تطورت الحرب معهم عندما تيقن الظاهر بيبرس من تحالف المغول مع سلاجقة الروم ضده الامر الذى دعاه الى تكثيف حملاته التى أعدها فى سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م لغزو سلاجقة الروم الذين حلتبهم الهزيمة فى موقعة ابلستين فى نفس العام (٦٢) .

وواضح من الحملة التى جردها السلطان الظاهر بيبرس على مملكة النوبة المسيحية على حدود مصر الجنوبية فى سنة ٦٧٥ هـ / ١٧٦ م (٦٣) ، ومد نفوذه أيضا الى بلاد الحجاز ، وجود علاقة بين السفارة الحفصية المذكورة وبين هذه الاحداث وقيام نوع من التعاون بين الدولتين فى اطار هذه الحوادث أو على الاقل الاتفاق على هدنة بينهما شبيهة بتلك الهدنة التى عقدها الحفصيون مع الفرنسيون (٦٤) .

والظاهر أن هذه الهدنة التى عقدت بين المستنصر الحفصى وبين بيبرس قد اقتضاها انشغال الاخير بمصير أملاكه الشامية حيث توفى أثناء وجوده بدمشق فى سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م . كما اقتضاها من ناحية الحفصيين ما وقع من انقسام فى البيت الحفصى عندما ثار على الخليفة الحفصى أخواه ابراهيم وميمون . وقد فر الاول الى الاندلس بينما لجأ

---

(٦٢) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠٢ . أبو الفداء ، مختصر تاريخ البشر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٦٣) مفضل ابن أبى الفضائل ، النهج السديد ، ص ٢٣٤ — ٢٣٨ . ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٣٢ . سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٤١ .

(٦٤) ذكر محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى ، المعروف بابن أبى دينار أن أصل هذه المعاهدة للصلح محفوظ فى وزارة الخارجية الفرنسية وهى مؤرخة بخط القاضى ابن زيتون بتاريخ ٥ ربيع الآخر ٦٦٩ هـ . وقد حضر الفقيه أبو العباس أحمد بن عثمان بن عجلان القيسى (عرض عليه القضاء فى تونس وأبى — ت ٦٧٠ هـ) عقد تلك الهدنة ، المؤنس ، ص ١٣٦ .

الثانى الى المشرق • وكان من سياسة الحفصيين ازاء مثل هذا الحادث اتباع أسلوب المهادنة ومهاداة أصحاب البلاد التى تأوى اللاجئين السياسيين بالهدايا الثمينة (٦٥) •

وفى هذا الصدد ، يذكر ابن بطوطة فى رحلته الى المشرق « أنه عندما زار مدينة الاسكندرية كان السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد الحفصى المعروف باللحيانى ، سلطان افريقية المخلوع أو كما يسميه البعض المخلوع ضيفا على السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى دار السلطنة بالاسكندرية وكان يجرى له مائة درهم فى اليوم الواحد • وكان يرافقه فى منفاه أولاده عبد الواحد ، ومصرى ، وأسكندرى ، وحاجبه أبو زكريا ابن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين » (٦٦) • وظل اللحيانى مقيما بها الى أن توفى هو وولده السكندرى بالاسكندرية ، أما ابنه الثانى المصرى فقد امتد به العمر فى الاسكندرية ، بينما مضى أخوه عبد الواحد يتردد ما بين الاندلس والمغرب وأفريقية وتونس بجزيرة جربة (٦٧) •

وعلى الرغم من أن عهد أبى يحيى اللحيانى (٧١١ — ٧١٧ هـ / ١٣١١ — ١٣١٨ م) يدخل ضمن مرحلة الضعف التى بدأتها الدولة الحفصية

---

(٦٥) عن هذا الانقسام أنظر : ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٣٩٨ .

(٦٦) ابن بطوطة ، الرحلة ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص ١٤ . استوزر السلطان المخلوع : أحمد بن ابراهيم بن محمد بن يوسف المرادى القرطبى المتوفى بالاسكندرية فى ربيع الاول ٧٣٦ هـ / أكتوبر — نوفمبر ١٣٣ م (المقريزى السلوك ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٤٥٤) . واعترافا من السلطان المخلوع بجميل الضيافة وكرمها وطيب المقام بمصر — على حد قول د . سعد زغلول قد سمى واحدا من أبنائه المصرى والآخر السكندرى (الاثر المغربى والاندلسى فى المجتمع السكندرى ، ص ٢٦٠ — ٢٦١) .

(٦٧) ابن بطوطة ، الرحلة ، نفس الصفحة .

بعد موت المستنصر وأحتدام الخلاف الاسرى فى عهد ابنه الواثق [٦٨] (أبو زكريا يحيى الواثق بن أبى عبد الله المستنصر) ، فان الدولة الحفصية فى هذا العهد ازدادت اقترابا من الدولة المملوكية ، وتوطدت العلاقات بينهما لا سيما فى عهد السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون الى حد أن السلطان الحفصى المذكور (أبو زكريا الواثق) قطع اسم المهدى بن

---

(٦٨) فيما يلى أسماء سلاطين بنى حفص الذين تولوا السلطنة فى مرحلة الضعف المذكورة . الواثق يحيى بن المستنصر محمد : بويع سنة ٦٧٥هـ ، وعزل سنة ٦٧٨ هـ . وأبو اسحاق أبراهيم بن أبى ز كريا يحيى بويع سنة ٦٧٨وقتل سنة ٦٨١هـ نتيجة فتنة ، وأحمد بن مرزوق بن أبى عمار بويع سنة ٦٨١هـ وقتل سنة ٦٨٣ هـ ومما قيل عنه أنه نودى عليه ملكا على يد المشعوذين ، وانقسمت الدولة فى عهده الى قسمين شرقى وغربى ، ثم أبو حفص عمر بن أبى زكريا بويع سنة ٦٨٣ هـ وتوفى سنة ٦٩٤ هـ . أبو عصيدة المستنصر محمد الواثق بن المستنصر ، (شهد عصره تدخل الصوفية بدرجة كبيرة) بويع بالسلطنة فى سنة ٦٩٤ هـ وتوفى سنة ٧٠٩ هـ ، ثم أبو بكر بن الشهيد بن يحيى ، بويع له سنة ٧٠٩ هـ وتوفى فى نفس السنة (ودامت ولايته ١٦ يوما) ثم أبو البقاء خالد ابى زكريا : بويع له سنة ٧٠٩ هـ وخلع سنة ٧١١ هـ ثم أبو زكريا بن محمد بن أحمد اللحيانى بويع له سنة ٧١١ هـ وفر من البلاد سنة ٧١٧ هـ (كانت بيعته بمشاركة العرب فغلبوا على الوضع السياسى للدولة) . يليه محمد أبو ضربة بى أبى يحيى زكريا (الواثق) بويع له سنة ٧١٧ هـ وتوفى سنة ٧١٨ هـ . ثم أبو بكر بن أبى زكريا يحيى بن الامير اسحاق ابراهيم بويع له ٧١٨ وتوفى ٧٤٧ هـ ثم أبو حفص عمر بن السلطان أبى بكر بن أبى زكريا بويع له فى رجب ٧٤٧ هـ وقتل فى جمادى الاولى ٧٤٨ هـ (قتله أبو الحسن المرينى انتقاما لوثوبه على اخوته وسفك دمهم) ثم أبو العباس أحمد بن السلطان أبى بكر الملقب بالمعتمد بويع له سنة ٧٤٨ ودامت ولايته أسبوعا أو اكثر قليلا (ذهب ضحية مؤامرة الحاجب المستبد على الدولة ابن تافراجين) ثم السلطان أبو الحسن على المرينى ، استولى على تونس فى جمادى الثانية ٧٤٨ وطرد منها سنة ٧٥٠ هـ . ثم أبو الفضل المرينى (سنة ٧٥٠ — ٧٥٠ هـ) ثم أبو العباس الفضل بن أبى بكر الحفصى (بويع سنة ٧٥٠ وخلفه الوزير ابن تافراجين سنة ٧٥١ هـ ثم أبو العباس بن أبى بكر ، بويع له سنة ٧٥١ وكان مغلوبا على أمره من ابن تافراجين حتى وفاته سنة ٧٧٠ هـ . وأخير تولى السلطان الحفصى أحمد بن محمد بن ابى بكر فى الفترة من سنة ٧٧٢ الى ٧٩٦ هـ . (أنظر : ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ٢٩٤) . أنظر الملحق رقم ٧ .

تومرت من خطبة الجمعة وأستبدله باسم السلطان المملوكى • ولـذلك ، اختار هذا السلطان الاسكندرية مأوى له عندما اضطربت أحوال البـلاد فأضطر الى الخروج من تونس والتوجه الى الاسكندرية بحرا وهنـاك أقام البقية الباقية من حياته حتى عام ٧٢٨ هـ أو ٧٢٧ هـ (على ما ذكره ابن تغرى بردى) (٦٩) •

ومن الثبت الاحصائى لسلاطين بنى حفص فى الضعف السوارد فى الهامش سالف الذكر يمكننا الوقوف على مدى الضعف الذى وصل اليـه سلاطين هذه المرحلة • فبعد عهد اللحيانى الملقب أيضـا بالمستنصر الثانى (٧٠) ، وباستثناء حكم أبى اسحاق بن أبى بكر (٧٥١ هـ — ٧٧٠ هـ) الذى غلب عليه الوزير ابن تافراجين ، كان متوسط فترات حكم هـؤلاء تتراوح بين السنة والسنتين • ولذلك كانت ميول هؤلاء السلاطيـن وهواهم يتأرجح بين المشرق والمغرب تبعا لقوة الدولة الحاكمة فى كـل منهما ، لا سيما وأن المغرب قد عرف فى هذه المرحلة من جديد بعثا لدولته على أيدى بنى مرين الى حد قيام السلطان المرينى أبو الحسن بالاستيلاء على الدولة الحفصية وأملاكها لفترة امتدت ما بين عامى ٧٤٨ و٧٥٠ هـ كما نجح فى حكمها ابنه أبو الفضل المرينى أيضا خلال سنة ٧٥٠ هـ •

ومع حالة الضعف والتردى التى آلت اليها الدولة الحفصية فى تلك المرحلة فقد شهدت مرحلة من البعث امتدت ما بين عامى ٧٧٢ هـ و٨٩٩ هـ ،

---

(٦٩) ويذكر ابن تغرى بردى أن أبا زكريا يعتبر أول الامراء الحفصيين الذين تطعوا أسم المهدى من الخطبة وعوضه بالسلطان الناصر محمد بـن قلاوون (النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، القاهرة ، ص ٢٦٨) .

(٧٠) كانت الخطبة مشتركة بينه وبين أبيه حيث يقول الخطيب بعد ذكر السلطان : « اللهم وأرضى عن نجلهم الناشىء عن مقامات شرفهم المستنصر بالله أمير المؤمنين ابى عبد الله محمد (الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٦٤) .

وبدأت بعهد السلطان الحفصى أبى العباس أحمد بن عبد الله بن أبى يحيى أبى بكر ، وشملت فترة حكم ابنه أبى فارس عبد العزيز : ٧٧٢ — ٨٣٧ هـ قبل أن تنتقل الى طورها الاخير فى عهد كل من محمد المستنصر بن المنصور بن أبى العباس أحمد وأبى عمر عثمان بن محمد بن المنصور بن أبى فارس عبد العزيز . ٨٣٧ — ٨٩٣ هـ ، وسجل نهايتها خلفه أبو عمرو يحيى بن محمد المسعود : ٨٩٣ — ٨٩٩ هـ .

بدأ أبو العباس عهده الاول فى السلطنة بالعودة الى قسنطينة بمساعدة بنى مرين سلاطين المغرب الاقصى . وكانت وحدة السلطنة الحفصية قد تمزقت من جراء استبداد أشياخ القبائل العربية بنواحى اقطاعاتهم ، ولذلك ، كان السبيل الى اعادة هذه الوحدة ضرب سلطة هؤلاء بقوة أخرى فتية تتمثل اما فى سلاطين المرينيين أصحاب المغرب الاقصى أو سلاطين المماليك فى مصر والشام . وقد تعدى دور المرينيين فى هذه الحوادث نطاق التحالف مع أبى العباس باسم الوحدة الحفصية عندما تدخلوا فى النزاع الواقع بين هذا السلطان وابن عمه عبد الله صاحب بونة الذى حصل على تأييدهم ضد السلطان الحفصى فى حركته الفاشلة سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م) وهى الحركة التى أنتهت بقتله وتعليق رأسه على باب فاس . وفى رواية أخرى أنهما تلاقيا فى عام ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) وهزم عبد الله فى مسافة كبيرة من تبرسق الى سيبوس ، ففر على فرسه ، ومع حلول الظلام ركب البحر قاصدا المغرب للاستنجاد ببنى مرين (٧١) .

---

(٧١) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٩١ . انظر أيضا : ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٥٩٨ . (لم أتوصل الى معرفة مكان مدينة سيبوس ، ولعلها تكون محرفة ، حيث ذكرها ابن خلدون سبيبة وهى مدينة بالقرب من تونس) .

كذلك تعدى دور العرب أيضا حسبما سيجيء الحديث فيما بعد نطاق الاستبداد القبلى بالسلطة المحلية ، عندما استعان بهم الشيخ الموحدى أبو عبد الله بن محمد بن تفراجين استكمالا لدور أبيه أبى محمد بن تفراجين فى الاستبداد بالسلطنة واتصالا بهذا الدور العربى الرافض أصلا السيطرة المملوكية ، وصلت الى تونس فى عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م من مصر سفارة السلطان المملوكى الملك الظاهر أبى سعيد برقوق (٧٨٤ — ٨٠١ هـ / ١٣٨٢ — ١٣٩٩ م) تحمل هدية قيمة الى السلطان أبى العباس الذى أجزل بدوره العطاء لرسل السلطان المملوكى وخرج معهم فى عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م يودعهم ويشيعهم بنفسه وأتفق أن ضم ركب السفارة الركب المغربى الكبير الذى خرج للحج ، فخرج معهم حتى تجاوزوا حدود طرابلس ، حتى يكون أفراده فى مأمن من عبث الاعراب فى تلك النواحى لا سيما الهوارة (٧٢) .

وهذا الحديث عن العرب والمماليك ، ينقلنا الى نقطة بحث يستلزمها الامر لتوضيح ماوقع من حوادث يمكن حصرها فى نطاق العلاقات التى كانت قائمة منذ عصر الموحدين بين العناصر العربية والمملوكية والمغربية التى شكلت وجها آخر للعلاقات الحفصية المملوكية خارج نطاق الحديث عن الخلافة الموحدية الحفصية وما يتعلق بها من موضوعات كالبيعة والتبعية للمشرق الاسلامى والمغرب .

---

(٧٢) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٠٩ . ابن ابى دينار ، المؤنس ، ص ٧

(٣)

تطور العلاقات بين العناصر العربية والتركية المملوكية وبين

الحفصـــــــيين

هذا الوجه الآخر من العلاقات المشرقية ــ المغربية فى عهد الدولتين الحفصية والمملوكية تتجاوز أهميته المجال السياسى الى مجال الفكـــر الشعبى عند العامة ، وذلك منذ أن انتشرت بينهم مقولات لابن تومـرت عبر بها عن تأصل الدعوة الموحدية وتذهب هذه الاقوال الى أن من يطولُ به العمر من الموحدين سوف يشهد امراء من أهل مصر يستظلون بالشجرة التى كان المهدى يديم الجلوس تحتها للوعظ والارشاد •

أما عن دور العرب فى تاريخ الدولة الموحدية المراكشية فقد سبق أن فصلنا الحديث عنه ونعود هنا الى الاشارة الى هذا الدور فى تاريخ الدولة الحفصية • ففى بداية هذا الفصل أشرت الى الامكانيات البشرية المحدودة التى قدمها موقع الدولة الجديد فى تونس اذا ما قورن بموقع الدولـــة الموحدية الاولى فى مراكش • وتبرز رسائل الموحدين ــ بعد حملاتهم على تونس ــ الاهمية الاقتصادية لمدن افريقية التى أفتتحها الموحدون • وقد سبقت الاشارة الى مثل هذا الوصف بالنسبة لمدينة تونس [٧٣] • وفى رسالة أخرى اشارة الى الاهمية الاقتصادية لمدينة قابس جاء فيها : « •• وهذه المدينة العتيقة روح هذه الجهات الافريقية ومعناها وقفلها الـذى يحمى حوزتها ويكف عداها ، ومنعتها التى لا يتهيأ لمفسد أن يتخطاهاالى أذيتها ويتعداها ، وما تمشى للاغزاز ــ أبادهم الله ــ ما تمشى الاتملكها، ولا توصلوا الى اغترهم الا بانتشار سلكها • وهى جامعة مع هذه الفوائد

---

(٧٣) ابن ابى دينار ، المؤنس ، ص ٧ .

الجمة ، والمنافع الكاملة المستتمة محاسن يروق الناظرين رواؤها وتملا العين بهجتها • المؤنقة ولألأوها يتفجر خلالها الماء العذب ، ويلتقى بها الركاب والركب ، وتحدق بأرجائها الجنات الالفاف والحدائق الغلب ، وتجتمع فيها أصناف التمر المتخير والحب » (٧٤) •

ومع ذلك ، فلا جدال فى الحقيقة التى ذكرناها فيما سبق حول الامكانات البشرية المحدودة للاراضى التونسية ، وتنعكس هذه الامكانات أيضا على حجم القوة الحربية للحفصيين ، بحيث اضطروا الى فتح المجال أمام المرتزقة من الاجناس المختلفة ومن المعروف أن قوة الجيش الحفصى فى عهد أبى زكريا الاول مؤسس الدولة نحو سبعين ألف مقاتل من العرب والاندلسيين والمماليك الغز والنصارى (٧٥) • وتعد العناصر الثلاثة الاخيرة وافدة جديدة اذا ما قورنت بالعنصر العربى الذى سبق الى الهجرة والاستقرار والانخراط فى صفوف الموحدين • كما ظهر العنصر التركى من دون غيره من العناصر عنصرا متسلطا بحكم السيطرة المملوكية على بلدان المشرق فضلا عن تحول الغز الى عنصر محلى آخر تكاثرت أعداده الى جانب العنصر العربى • وقد ازداد شغل المماليك الغز لدور العرب العسكرى وحاز افرادهم على الكثير من الامتيازات الاقطاعية التى سبق اليها العرب •

فلقد ظهر المماليك الغز فى المناطق الشرقية من بلاد المغرب فى خلال فترة الاضطرابات التى تسبب فيها ابن غانية وأسرته الميورقية • وجاء انخراطهم فى صفوف المتحاربين فى خضم هذه الحوادث متفقا مع سبق استخدامهم فى المشرق بين قوات الفاطميين وقبلهم العباسيين •

---

(٧٤) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣٠ ، ص ١٩١ .

(٧٥) R. Brunschvig, La Berbérie, p. 81.

أما فى المغرب فقد استخدمهم الموحدون فى جيوشهم ، فى أعقاب السفاره التى أرسلها صلاح الدين الى المنصور الموحدى والتى كانت من آثارها غلبة روح الجهاد على المشاعر الاسلامية فى المغرب مما أدى الى انفتاح الموحدين على الغز بحيث بدأوا فى استخدامهم فى ديوان التمييز (٧٦) .

ثم زادت أهمية هؤلاء الغز فى الجيش الموحدى عندما اعتمد عليهم يعقوب المنصور بكثرة فى معركة الارك عام ٥٩١هـ / ١١٩٥م . ذلك أنه لما أراد الاستعداد للمعركة أعلن عن النفير العام عبر كتبه التى أرسلت الى جميع بلدان مملكته (٧٧) لجمع أكبر عدد (حسب قوله) من الاتقياء والصالحين والشجعان ، على أن يحملوا اليه لتمييزهم قبل بدء المعركة .

وأجتمع للمنصور من هؤلاء الغز الاتراك عدد كبير قربهم اليه وجعل كلما ساروا بين يديه ، بيدى أفتخاره بهم حتى أنه كلما نظر اليهم قال . « من عنده هؤلاء الجند لا هؤلاء ويشير الى العسكر » (٧٨) .

---

(٧٦) يكون على رأس ديوان العسكر وزير ، غالبا من الجند ، له الاشراف على كل ما يتعلق بالجيش وشئونه . أما التميز فهو كما أسلفنا عملية تصفية فى صفوف الجيش من المارقين والخطرين واعدامهم ، ثم تطور الى اختيار الصفوة من الجند باشراف الخليفة الموحدى قبل كل معركة . ويعمل بالتميز ويقرن بالانعام والبركات على الجند الذين فازوا بالتميز ، وكان يتولى ديوان التميز وزير يسمى كاتب ديوان التميز . وكان للجيش فى ديوان الكتابة كاتب او أكثر يختصون بالكتابة فى شئونه (ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٤١) .

(٧٧) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٢٢٢ .

(٧٨) وفى اعزاز الخليفة يعقوب الموحدى لهؤلاء شبه بما حكى عنه قتيبة بن مسلم والى خراسان حين لقى الترك ، وكان فى جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ، فجعل يكثر السؤال عنه ، فأخبر انه فى ناحية من الجيش « متكئا على سنة قوسه رافعا اصبعه الى السماء ، فقال قتيبة لاصبعه هذا : تلك أحب الى من عشرة آلاف سيف » . (المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٥) .

والمنصور فى ذلك قد أقترب بهم من وضع طائفة المماليك السلطانية — أى المماليك الخاصة بالسلطان القائم بالامر • وقد وصفهم القلقشندى بأنهم: « أعظم الاجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدهم قربا وأوفرهم اقطاعا ، ومنهم يؤمر الامراء رتبة بعد رتبة » (٧٩) •

وقد بلغ من اعزاز المنصور للغز الوافدين من مصر وغيرها من بلدان المشرق الى حد اقطاعهم الاقطاعات الواسعة التى لم يصل اليها الجند الموحدون • وكان جزء مهم من هذه الاقطاعات بالمغرب والاندلس يغل فى كل سنة حوالى ٩ آلاف دينار • وفى ذلك يقول المراكشى : « فأحسن نزلهم وبالغ فى تكرمتهم وجعل لهم مزية ظاهر على الموحدين ، وذلك أن الموحدين يأخذون الجاميكة ثلاث مرات فى كل سنة ، فى كل أربعة أشهر مرة ، وجاميكة الغز مستمرة فى كل شهر لا تختل • وقال : « الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين ، أن هؤلاء غرباء لا شىء لهم فى البلاد يرجعون اليه سوى هذه الجاميكة والموحدين لهم الاقطاع والاحوال المتأصلة » (٨٠) •

وتجاوزت المكانة السامية التى شغلها هؤلاء الحياة العسكرية الى الحياة العامة ، فقد عرف عنهم حسن المعاشرة والمعاملة للناس بل ذكر أنه لم يرد المغرب من هذه الطائفة الا وكان ألطف حسا وأذكى نفسا وأحسن محاضرة وأطيب معاشرة ، وأنهم كانوا يقرضون الشعر فزاد ذلك من علاقاتهم الودية بالمغاربة (٨١) •

---

(٧٩) القلقشندى ، صبح الاعشى ، دار الكتب ، ١٣٣٢ هـ ، ج ٤ ، ص ١٥ .

(٨٠) المراكشى ، نفسه ، ص ١٧٧ .

(٨١) يذكر المراكشى : انشد لهم احد الاصدقاء شعرا لاحد شعراء الاندلس من أهل اشبيلية :

وقائل فيهم لم تهجع فقلت له كيف الهجوع لطرف نافر الوسن .
لم تدر الكرى الممنوع عن بصرى هى السنات التى فى مقلتى حسن

(ص ١٧٧) .

وقد ذكر ظهور هؤلاء الغز مع يعقوب المنصور عند زيارته لمدينة تينملل وجلوسهم تحت شجرة خروب مقابلة للمسجد العامة بمقولات ابن تومرت السابق الاشارة اليها عند الوعد بالنصر ، وعن مشاهدة أمراء من أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة • ويذكر فى هذا الصدد أنه بمشاهدة هؤلاء مستظلين بظل تلك الشجرة أعتبر ذلك من الايام المشهودة حيث سمع التكبير من كل جهة وخرجت النساء تولولن وتضربن بالدفوف ويرددن بلسانهن البربرى ما معناه « صدق مولانا الامام نشهد أنه الامام حقا » • وأن كان المنصور نفسه لم يبد اهتماما بتلك الحادثة لعدم اعتقاده أصلا فى امامة المهدى ومهدويته (٨٢) •

واستمر جلب الغز الاتراك من مصر فى عهد خلفاء يعقوب المنصور والى ما بعد هزيمتهم الشنعاء فى عهد محمد الناصر بن يعقوب المنصور فى معركة العقاب بالاندلس سنة ٦٠٩ هـ (١٢١١ م) ، التى كانت نذيرا بخروج الاندلس من أيدى الموحدين بل ونهاية الدولة الموحدية(*) • ومع انتقال قوة الدولة الموحدية الى القسم الشرقى من أملاكها على أيدى الحفصيين فى تونس ، وفى ظل ما قام من علاقات أوثق مع الشرق ، تهيأ المجال لدخول عدد كبير من المماليك الاتراك فى خدمة الدولة الحفصية عسكريا بوجه خاص • وظهر هؤلاء فى عهد الامير الحفصى أبى زكريا وقد فاقت مرتبتهم فى الجيش مرتبة العرب القدامى • فقد رتب هذا الامير جنوده فى تونس تحت امرة قائد يسمى المزوار على النحو التالى :

---

(٨٢) المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٨ .

(*) راجع فى هذا الانهيار ، ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٦ ،

أولا ــ الجند من أبناء الموحدين المغــاربة •

ثانيا ــ الجند من أبناء الاندلسيين الوافدين ومنهم الرماه •

ثالثا ــ الجند من مماليك الترك •

رابعا ــ قبــائل العــرب •

خامسا ــ العلوج أبنــاء الافرنج •

لذلك استمر دور هؤلاء الترك يشاركون فى الوقائــع الحربية لدول المغرب بما فى ذلك الدولتين المرينية والزيانية (**) •

(**) تم استخدام الترك فى دولة عبد الواد الزيانية فى تلمسان خاصة فى عهد أبى حمو الزيانى ــ كقواد أورسل ــ الذى أرسل رسوله موسى بن على الغزى لطلب النجدة العسكرية ضد ثورة راشد بن المغراوى خاصة من العرب عندما أرادوا محاصرة بجاية ضد الموحدين (أنظر الفرد بل ، بفيــة الرواد فى ذكر ملوك بنىء بد الواد ، الجزائر ١٩٠٣ ، ص ١٢٩) . ويؤكد برنشفك على أهمية الاعتماد فى الحقبة الاولى من القرن ١٣م من حياة الدولة الحفصية على مجموعات هامة من الغز ويضيف أنه فى عهد أبى زكريا الاول وابنه كان قد تم شراء الفا من الفرسان المماليك الاتراك من مصر . ويذكر أيضا براوية ابن خلدون أنه بعد سقوط بغداد هرب عدد كبير من قواد الاتراك الى الشمال الافــريقى ابتاعهم الخليفة المستنصر . ويستطرد برنشفك الحديث عن وجود العبيد فى الجيش الحفصى فيقول : « .. فى بداية القرن ١٤م كانت هناك مجمــوعة من العبيد السود جناوة Ganawo مرتدين ملابس بيضاء حاملين الرماح ، كانوا جزءا من حاشية السلطان ، ولكنهم كانوا قليلى العدد » . ابن خلدون ، العبر، ج٦ ، ص ٥٩٧ ــ ٥٩٨ .

— Brunschvig, Op. Cit., pp. 81—82.

أمام هذا النمـــو المتزايد للعنصر التركى بين صفوف الجنـــدية فى قوات الموحدين والحفصيين والمرينيين والزيانيين ، انحسر الدورالعربى الى مجال أحداث الثورات والفتن • وقد سبقهم فى ذلك عرب مصر تعبيرا عن رفضهم للحكم التركى • ونشهد بداية هذه الثورات من العصر الايوبى عندما قام العادل سيف الدولة أخ صلاح الدين فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م بالقضاء على ثورة عربان الصعيد بقيادة كنز الدولة ، وعندما قام الامير أقطاى نيابة عن السلطان المملوكى أبيك بالقضاء على ثورة كبرى لعـــرب بلبيس سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م • وكذلك عندما قام الاميران سلار وبيبرس الجاشنكير نيابة عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى عام ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م بالقضاء على ثورة أخرى للعرب فى صعيد مصر قتل خلالها منهم بضعة آلاف حتى « جافت الارض بالقتلى » ؛ ومنها ماوقع من نتائـــج وخيمة للعرب ترتبت على ثورتهم من جديد فى الصعيد سنة ١٣٥٣ م بقيادة ابن الاهدب شيخ قبيلة عرك (٨٣) •

لم تكن حركات العرب فى مصر وثوراتهم ضد الترك نابعة من فراغ سياسى ارتبط بالحياة البدوية التى عرفت عن جماعات منهم تعـــــرف بالعربان أو الاعراب • فهى قد اتصلت من ناحية بحركة الفلاحين المصريين الرافضين للمظالم الجبائية المختلفة التى نزلت بهم الى حد لجوئهم الى « الهروب من الارض والاستسلام للموت فى المجاعات والاوبئة » (٨٤) • كما اتصلت حركتهم ايضا بالاتجاهات الشيعية والخارجية التى أنهضت

---

(٨٣) المقريزى ، السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٩٢٠ — ٩٢٢ . سعيد عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص / ١٠٩ .

(٨٤) - A.N. Poliak; Les Révoltes Populaires en Egypte à L'époque de Mamloukes et Leurs Causes économiques REI 1934, T.3, pp. 260—71.

أصحابها ضد الحكم المملوكى السنى ، هذا فضلا عن اتصال تلك الحركة بأسباب تاريخية تعلقت بظاهرة الاختلاط بين العرب والبربر فى شمال أفريقيا ، وارتباط ثوراتهم فى بداية عهد كل من دولتى الايوبيين والمماليك بالاعتقاد فى أنهم أحق بالحكم من هؤلاء الحكام الذين خلفوا الفاطميين . ثم أن أشياخ العرب كانت لهم امتيازات أحرزوها من جراء اقطاعهم الاراضى الواسعة فى مناطق اقامتهم بل وتنصيبهم جباة لخراج الوجه القبلى [٨٥] ولذلك تنوعت الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبائل العرب وأصبحت لهم موارد ثابتة من مواشى الذبح والخيول والجمال المصدرة الى القاهرة والاسكندرية ، بل تعداها الى الدقيق والقمح والزيت والصابون والفواكه وبقية المنتجات الزراعية التى ينقلونها ويتاجرون فيها بل قامت بعض بطون هذه القبائل العربية المستقرة بالزراعة والصناعة مثل هوارة فى الصعيد التى عملت فى عصر قصب السكر وتكريره [٨٦] .

وحين تنتهى صورة هؤلاء فى نظر المؤرخين المعاصرين الى تلك الصورة التى نقلها لنا ابن اياس عن حوادث سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٣ م ، فأن الامر يدعو الدارسين الى البحث فى الاصول التاريخية لهذه الصورة قبل الاخذ بظاهرها الوارد على لسان ابن اياس القائل : « فى ذى القعدة سنة ٩٠٨ هـ تزايد الفساد من العربان والعشيرة فى جهة الشرقية والغربية وجهة الصعيد حتى كادت أن تملك العربان البلاد من أيدى المقطعين فعند ذلك جمع السلطان الامراء فى الدهيشة وضربوا مشورة بسبب فساد أحوال البلاد الشرقية والغربية وتعيين فى ذلك اليوم جماعة من الامراء بأن يخرجوا لمحاربة العربان وطردهم عن البلاد فعين طراباى رأس نوبة

---

(٨٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، القاهرة ، ١٩٢٦ ، ج ٣ ، ص ١٩٦ .

(٨٦) E. Piloti; L'Egypte au Commencement du XVe Siecle, Le Caire Univ. Fouad, Ter 1950, pp. 19 e. Pass.

النوب الى جهة الغربية ومعه جماعة من المماليك السلطانية وعين الامير قانى باى قرا أمير آخور كبير الى جهة الشرقية • وعين خايربك صاحب الحجاب وقانصوه بن اللوقا أحد الامراء المقدمين الى جهة الصعيد وعين أزبك المكحل أحد المقدمين ودولات باى قرموط أيضا بأن يتوجهوا الى جهة البحيرة فخرجوا هؤلاء الامراء وصحبتهم الجم الغفير من العسكر • ثم بعد أيام جاءت الاخبار بأن عربان الشرقية قد كسروا الامير قانى باى أمير آخور كبير وقطعوا طبوله وجرح فى وجهه • فعند ذلك أرسل له السلطان نجدة فعين الامير تمر زردكاش أحد الامراء المقدمين ومعه جماعة من المماليك السلطانية فتوجهوا اليه •• ثم أن الامراء الذين توجهوا الى محاربة العربان صاروا يقطعون رؤوس شبان العرب ويرسلوهم الى القاهرة فى شلف التبن على الجمال • وأشيع عن الامير طراباى أنه كان ينشر جماعة من العربان بالمنشار من رؤوسهم الى أقدامهم ، وسلخ منهم جماعة كثيرة وراح الصالح حتى مهدوا البلاد • وقتل من العربان زيادة على ألفين انسان فمن يومئذ سكن الاضطراب التى كانت بالشرقية والغربية قليلا وخف أمر العشير الذى طافشا فى البلاد » (٨٧) •

ومثل هذه الصورة تراها فى قول العبدرى عن عربان افريقية أثناء رحلته حيث قال : « •• ولا يعدم من عربانها ايلام خاطر ولقد استوى لديهم الصالح والطالح وأنفق فى مذاقهم بكفرهم ونفاقهم كل عذب ومالح • انخذوا أخذ الحاج خلقا ودينا وأعتقدوا هلاكه ملة ودينا فما له عندهم طلعة أحلى من مال اليتيم فى الولى الفاجر اللئيم ، ومن حيث اخوان الصفا ومن الوعد على ثقة الوفاء لبسوا أسمال المغاور والغوا خلال المفاوزفهم بها أغنى عن الماء من ضب وأصب الى صب الغرافر ••

---

(٨٧) ابن اياس ، نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٥١ .

ولا يخطر على تلك المعابر عابر ولا يرد فى تلك المناهل ناهل الا انقضوا عليه انقضاض النسور على البغاث ، وأنحدروا عليه بحيث لا يغاث من استغاث • فمزقوا أشلاءه تمزيق الدهر للاحرار وعاثوا فيه عوث أوس فى ثلة وأسامة فى ضرار ، ولا أمن لهم من عوادى الدهر » (٨٨) •

غير أن الصورة فى المغرب الادنى لم تكن كذلك على الاطلاق • ففى تلك المرحلة من حياة الدولة الحفصية عمل العرب على البناء مثلما كانوا يفعلون فى عهدهم الاول • ففضلا عن تعمير مناطق استقرارهم الاولى الساحلية وما نشروه بها من معالم حضارتهم وفى مقدمتها اللغة العربية ، أنتقلوا الى سفوح الهضاب العالية يتحصنون بها خلال وقائع أزماتهم فأسسوا قرية القلعة الصغرى والكبرى وأكودة والحمام فى أوائل القرن ٨هـ وفيها امتزجوا أكثر بالسكان من أهلها البربر •

ولكن العرب سرعان ما أستثمروا — أثناء حركتهم ضد السيطرة التركية فى الجيش والادارة الحفصية — الثورات المختلفة التى نشبت ضد الحفصيين ، فظهر لهم دور كبير فى ثورة الدعى أحمد بن على عمارة المسيلى ، الذى نجح مؤقتا فى ادعاء المهدية وشرع يطوف البلاد لاخذ البيعة ، فكان العرب أول من بايعه وأقتنع بمهدويته لا سيما قبائل دباب ورياح (٨٩) • وبتعضيد العرب بايعه أهل فاس سنة ٦٨١ هـ / (١٢٨٢ م) ودارت مذبحة هائلة بين هذا الدعى والقوات الحفصية وأهتبل العرب الفرصة وأقدموا على ضم القرى انتقاما من السلطة الحاكمة •

---

(٨٨) العبدرى ، الرحلة ، المقدمة ، ص خ ، ص ٣ — ٤ . انظر ايضا : ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٧ — ٩ .

(٨٩) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٤٣ — ١٤٥ . الوزير السراج ، الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ١٠٣٦ — ١٠٣٧ . عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج ١ ، ص ٤٢١ — ٤٢٨ .

وتكرر المشهد على أطراف تونس العاصمة الى حد دخول أحـــد زعماء قبيلة الكعوب (هداج بن عبد الكعبى) جامع الزيتونة بخفيه ، ولما سألته العامة : « لماذا تدخل المسجد بخفيك ؟ قال : دخلت بها على الملـك بقصره » استخفافا منه بالدولة الحفصية ، فما كان من العامـــة الا أن فتكوا به (٩٠) .

ثم عمد عرب الكعوب من أولاد أبى الليل (٩١) فى سنـــة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) الى طلب العون من خالد بن أبى زكريا أمير الثغور الغربيـــة وأغروه بالاستيلاء على القسم الشرقى من الدولة الحفصية بسبب القبض على بعض أشياخهم . فلم يتردد خالد بن أبى زكريا فى الاندفاع مـــع الحرب فى حركتهم للاخذ بالثأر وتملك البلاد . ولم يكتب لحركته النجاح بسبب وصول أبى يحيى اللحيانى من الحج واستيلائه على الحكم فى عام ٧١١ هـ / ١٣١١ م . بمساعدة العرب أنفسهم . ولم يلبث هذا السلطـــان الحفصى أن أشرك معه العرب فى سلطانه بل أباح لهم حرية التصرف فى البلاد وأقطعهم اقطاعات واسعة ليكونوا عونا له على منافسيه (٩٢) .

وبدخول تونس تحت الحكم المرينى ومصاهرة أبى الحسن المرينى

---

(٩٠) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٥٦ .

(٩١) عن دور عرب الكعوب من أولاد أبى الليل وثوراتهم ، ثم علاقتهم بابن تافراجين .

انظر :

- Georges Marçais: Les Arabes en Berbérie Du XI ou XIVe Siècle. Paris 1913, pp. 487—488.

(٩٢) الفرد بل ، بغية الرواد ، ص ١٣٦ — ١٤٠ .

لابى يحيى بن أبى زكريا [٩٣] واتخاذه من أبى محمد بن تافراجين [٩٤] وزيرا له ، يعود العرب الى الثورة . وفى هذا يقول الزركشى : « .. ووقف الشيخ أبو محمد عبد الله بن تفراجين بين يدى المولى ابراهيم ومهد أموره وأحكم دولته ولقب بالمستنصر وكانت سيرة الشيخ ابن تفراجين فى مدته سيرة حسنة مع جميع أهل تونس الا أنه لم يكن له فى أعرابها وطرفها قوة ظهور وأعظم جباية من سفارة البحر » [٩٥] .

ثم يعود العرب الى الظهور من جديد على مسرح الحوادث ابان الفتن التى نشبت بين أبناء أبى يحيى أبى زكريا بايعاز من ابن تافراجين ، عندما لجأ الى أغفال أخذ البيعة لولى العهد أبى العباس أحمد ونصب مكانه أخاه أبا حفص . فانحاز عرب الكعوب من بنى سليم الى جانب ولى العهد أبى العباس أحمد ، وانتهى هذا الموقف بقتل ولى العهد وأحد رؤساء الكعوب وهو أبى الهول بن حمزة [٩٦] . فلجأ هؤلاء الى أبى الحسن على المرينى فى عام ٧٤٧هـ — (١٣٤٨م) يستحثونه على ضم افريقية وقد تحقق

---

(٩٣) يشير ابن القنفذ الى هذه المصاهرة بقوله : « صاهر ابو الحسن المرينى الدولة الحفصية مرتين الاولى على فاطمة ابنة السلطان ابى بكر التى هلكت فى غزوة طريف التى نكب فيها السلطان أبو الحسن سنة ٧٤١ هـ ، وتم زواجها منه فى سنة ٧٣١ هـ . ثم تزوج بنتا ثانية للسلطان هى عزونة شقيقة الفضل صاحب بونة وتم زواجه منها سنة ٧٤٧ هـ (الفارسية ، ص ٢٤ .

انظر أيضا :

— G. Marçais; La Berbérie Musulmane et L'orient Au Moyen Age, Paris, 1946, p. 301.

(٩٤) ينتسب ابن تافراجين الى بربر الموحدين (المصامدة) اذ كان جده من أعوان المهدى بن تومرت وأبو محمد هذا يعتبر أكبر شخصية فى البيت الحفصى فقد تولى منصب الحجابة عندما استبد بالدولة فى عهد السلطان أبى اسحاق بن أبى يحيى ، حتى أصبح الحاكم الفعلى وباسمه كانت ترد كل مكاتبات الدولة (انظر : الفرد بل ، نفسه ، ص ١٤٠ — ١٤٦) .

(٩٥) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٩٦) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٨٤ — ٨٥ ، ٨٩ .

ذلك بالفعل وتمكن هذا الامير المرينى من دخـــول تونس فى ســـنة ٧٤٨هـ (٨ــ١٣٤٩م) وبسط السيطرة المرينية على البلاد التونسية[٩٧] .

غير أن أبا الحسن المرينى لم يلبث أن عامل العرب بنفس المعامـــلة التى سبقه اليها الحكام الاقوياء فقد رفـــض أن يحتفظوا بحقـــوق اتاوة الخفارة التى كثيرا ما كان يغالى فيها أشياخ العرب الذين فرضـــوها على كل مسافر بنواحى اقطاعاتهم نظير تأمينهم لهمضد أعمال السلب والنهب والغارات . وكان أبو الحسن المرينى مدفوعا فى ذلك بحرصه على فـــرض هيبة الدولة وسلطانها بدليل اقدامه على وضع حد لسيطرة ابن تافراجين وسطوة الاعراب معا . وبالنسبة لهؤلاء ، فقـــد بالـــغ فى انتزاع ما كانوا ينعمون به من سلطان الى حد أنه استعاد الاقطاعات التى كانت بأيديهم وأعاد توزيعها على المرينيين وأهل البـــلاد ورفـــع اتاوات الخفـــارة عن الناس[٩٨] وأعفاهم منها وعوض العرب عنها بعطايا أو رواتب من ديوان الدولة .

غير أن العرب أنكروا هذا الاسلوب وأسفروا عن نواياهم العدائية ولجئوا الى استخدام العنف ضد الحكم المرينى ، ووجدوا تشجيعا على ذلك من ابن تافراجين . واتفق جل العرب لا سيما الكعوب منهم على تشـــكيل حكومة جديدة بافريقية يقوم عليها أحمد بن عثمان ابن أبى ديوس آخـــر أحفاد بنى عبد المؤمن ، وانضم اليهم جيش الزناتيين من بنى عبد الواد . وعند الاشتباك مع الجيش المرينى دارت الدائرة على المرينيين وفـــر أبو الحسن الى القيروان وهناك تلقى الهزيمة الثانية فى محرم من عام ٧٤٩هـ ــ ١٣٤٩م بعد حصار لم يتخلص منه الا بعد دفع الخفارة للعرب ضعف ما كان

---

(٩٧) أنظر عنهم ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٣١٢ .
(٩٨) الوزير السراج ، الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ١٠٥٦ ــ ١٠٥٧ .

يدفعها التونسيون وذلك مقابل حمايته حتى يصل الى سوسة ومنها بحرا الى تونس[٩٩] .

وفى تونس استطاع أبو الحسن أن يقرب اليه العرب من جديد فبدأ بأولاد مهلهل وعن طريقهم انصاع بقية العرب وأثباتا لحسن نواياهم وعربونا لطاعتهم له قدموا له سلطانهم الجديد ابن أبى دبوس وهكذا عاد التآلف والتحالف بينه وبينهم فصاهرهم أبو الحسن بأن زوج ابنه أبا الفضل بابنة عمر بن حمزة أحد زعماء العرب ربما كسبا لقلوبهم ولترويض مواقفهم الرافضة[١٠٠] .

وهكذا شغلت الدولة الحفصية لفترة طويلة بالدور العربى ، وكاد الدور التركى ينطمس بالمقارنة بالدور العربى ، ومن الغريب أن البديل للوجه السلبى للعرب أصبح يتمثل فى المغاربة المرينيين .

ثم عاد العرب الى سيرتهم السابقة مع عودة الدولة الى التسيب بعد وفاة سلطانها الحفصى أبى اسحاق سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨م) ومن قبله ابن تافراجين سنة ٧٦٦هـ (١٣٦٥م) . غير أن هذا لم يمنع من تأديبهم من جديد على يد السلطان أبى فارس عبد العزيز سنة ٧٩٩هـ (١٣٩٧م) واجبارهم على دفع ضريبة العشر . وتكرر تأديبهم على يد السلطان أبى عمرو عثمان بعد أن تولى السلطة فى سنة ٨٣٩هـ (٦—١٤٣٧م) خرج فى اثر العرب[١٠١] وقبض على أكابرهم ومنهم : نصر الذوادي ومحمد بن سعيد واسماعيل بن ضرار ومهلهل وأكابر الذواودة[١٠٢] بعد أن احتال عليهم

---

(٩٩) الفرد بل ، بغية الرواد ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .
(١٠٠) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٨١ — ٨٥ .
(١٠١) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .
(١٠٢) الوزير السراج ، الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ١٠٨٤ .

باعطاء كل شيخ منهم ألف دينار حتى يدخلوا القصر وعندئذ كبلهم بالحديد . دثار أولاد أبى الليل وحاولوا تطويق تونس ، الا أنهم فشلوا فى ذلك . كذلك شارك العرب فى حوادث عام ٨٩٣هـ (٨٩ــ١٤٩٠م) منذ عهد أبى زكريا يحيى حفيد أبى عمرو عثمان ، ففيها أثاروا الفوضى فى البلاد واستغلوا فرصة الوباء الذى انتشر فيها فيما بعد لا سيما فى عام ٨٩٩هـ (٥ــ١٤٩٦م) وأودى بحياة السلطان نفسه[١٠٣] . ومع نهاية الدولة غلب أشياخ العرب من جديد فى الاستبداد بسلطاتهم على حساب السلطة الحفصية . لا سيما منذ عام ٩٣٢هـ (١٥٣٣م) فى عهد السلطان محمد بن الحسن عندما استبد أولاد سعيد بالبلاد الامر الذى دعا السلطان الى اسكانهم بستين ألف دينار[١٠٤] . وقد جسم ابن أبى دينار سطوة العرب فى قوله : « ... ان هؤلاء العرب أذاهم بالطبع مثل العقرب ولو قطع ذنبها لا يبطل لدغها ، والى زماننا نحن منهم على وجل نسأل الله أن يحسم هذه المادة »[١٠٥] .

(٤)

دور الجند المغاربة فى العلاقات المشرقية

حبت الطبيعة بلاد المغرب وافريقية بوجه خاص بالمقومات الضرورية لقيام المغاربة بدور بحرى هام ، وقد لاحظ ابن خلدون أثر ذلك على تمرس

---

(١٠٣) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٥٧ . الوزير السراج ، نفسه ، ج ٥ ، ص ١٠٦ .

(١٠٤) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٦١ . انظر ايضا ، احمد بن أبى الضياف ، اتحاف أهل الزمان ، تونس ، ١٩٧٧ ، ص ١٢ — ١٣ .

(١٠٥) ابن أبى دينار ، نفسه ، ص ١٥٩ . راجع فى ذلك ابن أبى الضياف اتحاف أهل الزمان ، ص ١٦ — ١٧ .

المغاربة بالامور البحرية فقال : « والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله مالا تعانيه أمة من أمم البحار ، فقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومى ؛ وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم فى السفن ، فكانوا مهرة فى ركوبه والحرب فى أساطيله ؛ ولما أسف ما أسف منهم الى ملك العدوة الجنوبية ، مثل الروم الى افريقية والقوط الى المغرب ، أجازوا فى الاساطيل وملكوها ، وتغلبوا على البربر بها ، وانتزعوا من أيديهم أمرها ، وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولا ومرناق وشرشال وطنجة . وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ، ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد ، فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حفافية ، معروفة فى القديم والحديث »[١٠٦] .

وقد أثر امتداد الساحل الافريقى فى طبيعة السكان ، فكانوا يتميزون بنشاطهم البحرى العظيم ، وهو نشاط يكون جزءا لا يتجزأ من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولم يظهر هذا النشاط فى صورته الحقيقية ابان تبعية بلاد المغرب للخلافة الاموية بالمشرق ، ولكنه اتضح بعد أن تطلع المغاربة الى الانفصال عن المشرق الاسلامى[١٠٧] ، فمارسوا نشاطهم البحرى الذى بلغ ذروته فى القرنين الثالث والرابع باحتلالهم صقلية وجنوبى ايطاليا ومالطة وسردانية وقورشقة .

وفى المشرق الاسلامى ، كان تجنيد المغاربة فى الجيش المملوكية تقليدا متبعا منذ احتدام الحركة الصليبية ، فساهموا مساهمة فعالة فى الجهاد ضد الصليبيين وفى المرابطة على سواحل مصر والشام منذ عصر مبكر ، فقد

---

(١٠٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٦٢٧ .

(١٠٧) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ، ٣٤٧

اشترك جماعة منهم فى الجهاد مع عساكر نور الدين محمود بن زكى ضد الصليبيين[١٠٨] • ولذلك عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بجامع دمشق أوقافا كثيرة[١٠٩] • كذلك كان يبذل جهده لافتداء الاسرى منهم لانهم غرباء لا أهل لهم • واشترك المغاربة فى الجهاد بالاسكندرية فى بداية قيام الدولة الايوبية ، فأسس لهم صلاح الدين مدرسة ودارا وبيمارستانا ، واشترك كثير من المغاربة فى موقعة القبارصة بطرابلس الشام ، وقتل منهم فى أول لقاء مغربيان[١١٠] • وكان الامير يلبغا الخاصكى يكثر من توادهم فى البحر لاعتيادهم على ذلك[١١١] • وقد اشترك كثير منهم فى الدفاع عن الاسكندرية فى وقعة الاسكندرية ، واستشهد منهم عدد كبير، وكان يلبغا الخاصكى يقدرهم قدرهم ، ويعتبرهم فرسان البحر •

وفى عام ٧٦٧هـ — ١٣٦٥م قام مغاربة الاسكندرية بدور بارز فى مقاومة الغزوة القبرصية على المدينة آنذاك • وكانت هذه الغزوة من أخطر الوقائع التى تعرضت لها الاسكندرية طوال عصرها الاسلامى • وكما جرى استخدام الغزو الاتراك فى صفوف القوى الموحدية الحفصية ، قام المماليك لا سيما البحرية منهم باستخدام المغاربة النازلين بالاسكندرية على الاخص فى القوى البحرية المملوكية • وظهر تحت قيادة الامير يلبغا الخاصكى عدد من قواعد المغاربة فى البحر ومنهم الرئيس ابراهيم التازى • والى جماعة المغاربة المقيمين فى الاسكندرية ترجع المشورة الحربية بعدم القتال على الشواطىء بدون جماعة أو غطاء وضرورة التحصن داخل المدينة والقتال

---

(١٠٨) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٣٠١ .
(١٠٩) ابن جبير ، نفس المصدر ، ص ٢٨٥ .
(١١٠) د . السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ ، ص ٤٦٠ .
(١١١) النويرى السكندرى (محمد بن قاسم) ، الالمام بما جرت به الاحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية ، ص ١١٦ ب .

والمناورة من وراء الاسوار • وكان التاجر عبد الله البنا هو صاحب هذه النصيحة[١١٢] التى لم يؤخذ بها حتى لا تتعرض مزارات الاولياء والاربطة القائمة فى شبه جزيرة المنار للاعتداء القبرصى[١١٣] •

كان القبارصة فى حملتهم على الاسكندرية يترقبون عملا حاسما من جانب المدافعين عنها أدركوا عدم اكتراثهم للامر فتقدموا غربا الى الساحل فتصدى له جماعة من المغاربة المجاهدين ، خاضوا فى الماء ، وناوشوا من فيه القتال . وتمكنوا من الامساك بالغراب فى أيديهم ثم طلبوا من الزراقين أن يزودوهم بالنار ليحرقوه ، ولكن للاسف لم يهتم أحد بذلك ، لقلة همتهم وتوانيهم وغفلتهم • وما زال المغاربة ينادون فى طلب النفط والنار ، وأمام صراخهم المتواصل رمى الزراقون بمدفع فيه نار « كنار الحلفاء ، فوقع فى الماء فانطفأ ، وحدث خلاف بين المغاربة ، فتضاربوا بالسيوف وسقط منهم عدد كبير صرعى[١١٤] •

ويؤكد النويرى فى كتابه « الالمام بالاعلام » أن المغاربة دفعوا حياتهم ثمنا للدفاع عن المدينة عندما نزلوا الى المياه وأمسكوا القبرصية وجعلوا أجسادهم عرضة للنيران[١١٥] • ومن بين القواد المغاربة المشهورين الذين اضطلعوا بمهام عسكرية بحرية هامة الرياس ابراهيم التازى المغربى الذى شغل منصب رئيس دار الصناعة بالاسكندرية فى أيام السلطان

---

(١١٢) د . سعد زغلول ، الاثر المغربى والاندلسى فى المجتمع السكندرى ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(١١٣) د . سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٣٢٨ .

(١١٤) عن تفصيل بقية أخبار الحملة ، راجع : النويرى ، المصدر السابق ، ص ٧٩ — ٨٤ ب . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٣٢٩ — ٣٤٤ . د . سالم ، د . أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر الابيض المتوسط ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٣١٢ — ٣١٦ .

(١١٥) النويرى ، نفس المصدر ، ص ١٤٦ ب .

المملوكى الاشرف شعبان • ومع غضب هذا السلطان من الغارة القبرصية وغيرها على سواحل بلاده ، كلف رئيس دار الصناعة ابراهيم التازى بالاغارة على جزر العدو[١١٦] • وفى ٢٩ رجب من سنة ٧٦٩هـ (مارس ١٣٦٨م) أقلع التازى من ثغر الاسكندرية فى مركبين حربيين بهما خمسمائة مقاتل متجها الى جزيرة قبرص وما يجاورها من جزر فغنم سفينة بقلعين للعدو أرسلها الى الاسكندرية بعد أن حجز معه رجالها واستمر التازى فى غاراته ثلاثة وعشرين يوما عاد بعدها محملا بالغنائم والاسرى فارتجت الاسكندرية لقدومه ، وخرج أهلها الى موضع منارها لاستقباله ، واصطف الترك المجردة لحراسة الاسكندرية بطول الساحل راكبين خيولهم ، متطلعين الى الغرابين القادمة ، وقد ارتفعت عليهما أعلام السلطان • ودخل الرايس ابراهيم التازى الاسكندرية وسار من خلفه أسارى الفرنج يتقدمهم راهب كهل وهو راكب حمار ووجهه لذنبه ، وخلفه يسير خمسة وثلاثون أسيرا حفاة الاقدام قد ربطت أعناقهم بالحبال وأيديهم بالخشب[١١٧] •

ثم نلقى الملك بطرس لوزنيان مصرعه على يد بعض رجاله سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٩م) ، الا أن موته لم يغير من سياسة قبرص العدوانية نحو مصر والشام نتيجة لرفض سلاطين المماليك ابرام صلح معها • لهذا استمر قراصنتها يغيرون على الشواطىء الاسلامية ، ويجدون من وسائل دفاعها البحرى والبرى خير مقاوم لهم • وحسبنا أن نشير الى تلك المحاولة التى قام بها الاسطول القبرصى لغزو مدينة الاسكندرية من جديد سنة ٧٧٠هـ ، فتصدت له المراكب بقيادة الرايس ابراهيم التازى ، ووسائل الدفاع

---

(١١٦) د . سالم ، د . العبادى ، تاريخ البحرية ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .

(١١٧) د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٣٦٣ . د . سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٧٩ .

السلحلى من جروخ وسهام ومجانيق ، وخاضت معه معركة بحرية ضارية فقد فيها بعض سفنه وعـــدد كبيرا من رجاله ، ثم فـــر هاربا لا يلوى على شيء[١١٨] .

وذكر النويرى معلقا على بطولة ابراهيم التازى المغربى رئيس دار الصناعة بالاسكندرية : « لان الفرنج ليس بقهرهم سوى المغاربة ، وذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الاندلس ، يعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم فى بر وبحر ، فلو كان منهم بالاسكندرية من المغاربة جمعا كبيرا بجـــوامك مرتبة ، وغربان مجهزة بعددها وأزوادها ، كانوا يخـــربون جـــزر كثيرة ، وصارت الفرنج معهم فى جزيرة »[١١٩] .

واذا كانت أخبار المغاربة فى القوة المصرية ومعاركها تتناثر فى اشارات نادرة سجلها النويرى وغيره الا أن الاشـــارة التى أوردها ابن اياس عن دورهم فى الاسطول المملوكى أيام السلطان الغورى تؤكد تؤكد عدم انقطاع هذا الدور واستمراره وأهميته عند سلاطين المماليك وسياستهم الحربية ، يقول ابن اياس : « .. وكان العسكر الذى خرج فى هذه التجريدة ملفقا ما بين أولاد الناس وبعض مماليك سلطانية ، والغالب منهم مغاربة وعبيـــد سود رماة وتراكمة وغير ذلك ، وأرسل السلطان صحبتهم جماعة كثيرة من الينائين والنجارين والفعلاء بسبب تلك الابراج التى أنشأها السلطان فى جدة وأنشأ الصور .. »[١٢٠] .

---

(١١٨) النويرى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٤ ب . د . سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

(١١٩) النويرى ، نفس المصدر ، ص ٢٧٧ ب . د . سالم ، تاريـــخ الاسكندرية ، ص ٣٣٠ .

(١٢٠) ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق الدكتـــور محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ — ١٩٦٣ ، ج ٤ ، ص ٨٤ .

ولا جدال فى أن قلة الاشارات المذكورة عن المغاربة كان مرجعها ما أصاب مدينة الاسكندرية من اضمحلال فى القرن ٩هـ — ١٥م بسبب تحويل الطريق التجارى الى رأس الرجاء الصالح ، وما قام به البرتغاليون من السيطرة على الطريق التجارى الشرقى فى المحيط الهندى وجنوب البحر الاحمر . لذلك ، عندما اهتم سلطان مصر الملك الاشرف قانصوه الغورى ببناء أسطول كبير فى السويس ليتعقب به الفرنجة فى البحر الاحمر والمحيط الهندى . ويحمى التجارة المصرية ، نجده فى سنة ٩١١هـ (ربيع الاخر) يستعرض عسكره ويعين فيها ثلاثة تجاريد أنفذ كل منها الى جهة معينة . منها تجريدة بحرية وجهها الى بلاد الهند[١٢١] اشتركت فيها قوة مغربيه حسبما أشرنا آنفا أوكل السلطان قيادتها الى الامير حسين الكردى ، ووكل قيادة المغاربة وحدهم الى الخواجا نور الدين على المسلاتى المغربى . وخرجت الحملة فى احتفال كبير حتى وصلت الى مدينة السويس فاستقلوا منها السفن المزودة بالسلاح ، ثم أبحروا منها الى جدة فى جمادى الاخرة عام ٩٢١هـ (١٥٠٥م) . وبعد وصولهم اشتبكوا فى معركة طاحنة مع يحيى بن سبع أمير ينبع الثائر على الحكومة المملوكية فى مصر ، فانهزم وفر هاربا ونقلت تلك القوات بعضها بعض الوقت فى جدة لبناء الحصون والاسوار لمراقبة الطريق وقطعه على البرتغاليين بسبب ندرة المنتوجات الهندية الى مصر . وفى ذلك يردد ابن اياس قوله : « ... وكان باش المماليك الذين توجهوا فى المراكب الى جدة والتركمان والعبيد الذى بها حسين المشرف ، وباش المغاربة الذى بها الخواجا نور الدين على المسلاتى المغربى »[١٢٢] .

ووضحت مكانة المغاربة فى أحداث هذه التجريدة من تطور النزاع

---

(١٢١) ابن اياس ، نفس المصدر ، والصفحة .
(١٢٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، ص ٨٤ — ٨٥ .

المذكور الى حسام بن القائد المغربي على المسلاتى وأمير الحملة حسين الكردى ، وتطور النزاع بينهما الى حد عرقلة الحملة عن تحقيق هدفها ، فأمر السلطان الغورى بالقبض على المسلاتى الذى عاد الى القاهرة مكبلا بالحديد بينما أتم حسين الكردى عمله وانتصر على البرتغاليين فى عام ٩١٤هـ (١٥٠٨م) وغنم غنائم عديدة قبل أن يعود البرتغاليون للايقاع بالحملة المصرية ، ويرجع الامير حسين الكردى الى مصر فى عام ٩١٨هـ (١٥١٢م) يجر أذيال خيبة الهزيمة تاركا السبيل أمام البرتغاليين للاستيلاء على مقاطعة مكران فى الهند سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م) ومحاصرة سواكن أهم المراكز التجارية المصريةعلى البحر الاحمر ، بل وتهديد مدينة جدة نفسها .

وظهر دور المغاربة الحربى من جديد ضمن استعدادات السلطان الغورى للرد على تلك الهزيمة . ومما يذكر فى هذا الصدد ، أن السلطان المملوكى وجد صعوبة بالغة لحد بان الجند عليه فاستخدم الحيلة معهم ليحثهم على الخروج مع الحملة الى أن يمد ٦ آلاف أعد لهم ٢٠ سفينة فى ميناء السويس زودها بمجموعة كبيرة من أمهر البحارة منهم عدد كبير من طوائف المغاربة على قيادة الاسطول الريس (سليمان العثمانى) الذى أبحر فى رجب عام ٩٢١هـ (١٥١٥م) . ولكن يتكرر ما سبق من صدام بين الجند على عهد الامير حسين الكردى وعندما سليمان العثمانى فى شعبان عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) ببعض الاسرى وبقايا رجاله[١٢٣] .

كان ذلك من ارهاصات سقوط السلطنة المملوكية وادخولها فى ظل الامبراطورية العثمانية حسبما هو معروف من تاريخ نهاية الدولة المملوكية وبداية الدولة العثمانية فى بلدان المشرق والمغرب على السواء حتى غدت ملوية الى الشرق من أحواز فاس بالمغرب الاقصى .

---

(١٢٣) اسماعيل سرهنك باشا ، حقائق الاخبار عن دولة البحار ، ج ٢ ، ص ٣٦ . أنظر أيضا : محمود رزق سليم : الاشراف قانصوه الغورى ، أعلام العرب ، ص ١١٥ — ١١٨ .